١٥



صفوة التفاسير

القسم الخامس عشر

تفسير السور الكريمة

فصلت . الشورى . الزخرف . الدخان . الجاثية

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طبع على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم

بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم الخامس عشر

تفسير السور الكريمة

فصلت - الشورى - الزخرف - الدخان - الجاثية

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

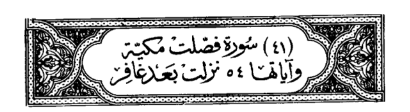
يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم

بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ، العمارية ، الرياض



بين يدي السورة

هذه السورة الكريمة مكية ، وهي تتناول جوانب العقيدة الإسلامية « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » وهي الأهداف الأساسية لسائر السور المكية التي تهتم بأركان الايمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ، المنزَّل من عند الرحمن ، بالحجج الواضحة ، والبراهين الساطعة ، الدالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام ، فهو المعجزة الدائمة الخالدة للنبي الكريم .

* وتحدثت السورة عن أمر « الوحي والرسالة » فقررت حقيقة الرسول ، وأنه بشرٌ خصَّه الله تعالى بالوحي ، وأكرمه بالنبوة ، واختاره من بين سائر الخلق ليكون داعياً إلى الله ، مرشداً إلى دينه المستقيم .

* ثم انتقلت السورة للحديث عن مشهد الخلق الأول للحياة ، خلق السموات والأرض ، بذلك الشكل الدقيق المحكم ، الذي يلفت أنظار المعرضين عن آيات الله ، للنظر والتفكر والتدبر ، ولكنَّ ظلمات الكفر هي التي تحول بينهم وبين الايمان ، فالكون كله ناطق بعظمة الله ، شاهد بوحدانيته جل وعلا .

* وعرضت السورة للتذكير بمصارع المكذبين ، وضربت على ذلك الأمثلة بأقوى الأمم وأعتاها ، قوم عاد الذين بلغ من جبروتهم أن يقولوا﴿ من أشدُّ منّـا قوة ﴾؟ وذكرت ما حلَّ بهم وبثمود من الدمار الشامل ، والهلاك المبين ، حين تمادوا في الطغيان وكذبوا رسل الله .

* وبعد الحديث عن المجرمين يأتي الحديث عن المؤمنين المتقين ، الذين استقاموا على شريعة الله ودينه ، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان ، مع النبيّين والصدّيقين ، والشهداء والصالحين .

* ثم تحدثت السورة عن الآيات الكونية المعروضة للأنظار ، في هذا الكون الفسيح ، الزاخر بالحكم والعجائب ، وموقف الملحدين بآيات الله ، المتعامين عن كل تلك الآيات الظاهرة الباهرة .

* وختمت السورة بوعد الله للبشرية ، بأن يطلعهم على بعض أسرار هذا الكون في آخر الزمان ،

ليستدلوا على صدق ما أخبر عنه القرآن ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبيَّن لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾

التسمية : سميت « سورة فصّلت » لأن الله تعالى فصَّل فيها الآيات ، ووضَّح فيها الدلائل على قدرته ووحدانيته ، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته ، وخلقه لهذا الكون البديع الذي ينطق بجلال الله وعظيم سلطانه !!

* * *

قال الله تعالى : ﴿حمۤ * تنزيلٌ من الرحمن الرحيم * كتابٌ فصِّلت آياتُه .. إلى .. ونجينا الـذين آمنوا وكانوا يتقـون﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٨) .

اللغة : ﴿فصِّلتْ﴾ بُيِّنت ووُضِّحت ﴿أكنة﴾ جمع كنان وهو الغطاء ﴿وقر﴾ صمم وثقل يمنع سماع الكلام ﴿ممنون﴾ مقطوع من مننْتُ الحبل إذا قطعته قال الشاعر :

إني لعمـرُكَ ما بابـي بذي غلقٍ ... على الصَّـديق ولا خـيري بممنون[1]

﴿صـرْصر﴾ الصَّرْصر : الريح الباردة العاصفة مع الصوت الشديد ﴿نحسات﴾ مشئومات من النَّحس بمعنى الشؤم وهو ضدُّ السَّعد قال الشاعر :

سـواءٌ عليه أيَّ حـينٍ أتيته ... أساعـة نحسٍ تُتَّقى أم بأسعد[2]

﴿أخزى﴾ أشد إهانةً وإذلالاً من الخزي بمعنى الإهانة ﴿الهون﴾ الإهانة والذل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿حمۤ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[3] ﴿تنزيلٌ من الرحمن الرحيم﴾ أي هذا القرآن المجيد منزَّل من الرحمن الرحيم ، أنزله جل وعلا رحمة بعباده ، وإنما خصَّ هذين الإسمين ﴿الرحمن الرحيم﴾ إشارة إلى أن نزوله من أكبر النعم ، ولا شك أن القرآن نعمة باقية إلى يوم القيامة ﴿كتابٌ فُصِّلت آياتُه﴾ أي كتابٌ جامع للمصالح الدينية والدنيوية ، بُيِّنت معانيه ، ووُضِّحت أحكامه ، بطريق القصص والمواعظ والأحكام والأمثال ، في غاية البيان والكمال ﴿قرآناً عربياً﴾ أي في حال كونه قرآناً عربياً ، واضحاً جلياً نزل بلسان العرب ﴿لقوم يعلمون﴾ أي لقومٍ يفهمون تفاصيل آياته ، ودلائل إعجازه ، فإنه في أعلى طبقات البلاغة ، ولا يتذوق أسراره إلا من كان

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٤١ . (٢) البحر المحيط ٧/ ٤٨١ . (٣) انظر أول سورة البقرة .

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝﴾

عالماً بلغة العرب ﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ، ومنذراً للكافرين بعذاب الجحيم ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ أي فأعرض أكثر المشركين عن تدبر آياته مع كونه نزل بلغتهم ، فهم لا يسمعون سماع تفكر وتأمل **قال أبو حيان** : المعنى أعرض أكثر أولئك القوم مع كونهم من أهل العلم ، ولكن لم ينظروا النظر التام بل أعرضوا ، فهم لإعراضهم لا يسمعون ما احتوى عليه من الحجج والبراهين[١] **وقال القرطبي** : السورةُ نزلت تقريعاً وتوبيخاً لقريش في إعجاز القرآن ، فهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به[٢] ، ثم أخبر تعالى عن عتوهم وضلالهم فقال ﴿وقالوا قلوبُنا في أكنَّةٍ ممَّا تدعونا إليه﴾ أي وقالوا للرسول ﷺ حين دعاهم إلى الإيمان : قلوبنا في أغطية متكاثفة ، لا يصل إليها شيءٌ مما تدعونا إليه من التوحيد والإيمان ﴿وفي آذاننا وقْرٌ﴾ أي وفي آذاننا صممٌ وثقلٌ يمنعنا من فهم ما تقول **قال الصاوي** : شبهوا أسماعهم بآذانٍ فيها صمَمٌ ، من حيث إنها تمجُّ الحقَّ ولا تميل إلى استماعه[٣] ﴿ومن بيننا وبينك حجابٌ﴾ أي وبيننا وبينك يا محمد حاجز يمنع أن يصل إلينا شيء مما تقول ، فنحن معذورون في عدم اتباعك ، لوجود المانع من جهتنا وجهتك ﴿فاعملْ إننا عاملون﴾ أي اعملْ أنت على طريقتك ، ونحن على طريقتنا ، واستمرَّ على دينك فإنا مستمرون على ديننا ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يُوحى إليَّ أنَّما إلهكُم إلهٌ واحد﴾ أي قل يا محمد لأولئك المشركين : لستُ إلا بشراً مثلكم خصَّني الله بالرسالة والوحي ، وأنا داعٍ لكم إلى توحيد خالقكم وموجدكم ، الذي قامت الأدلة العقلية والشرعية على وحدانيته ووجوده ، فلا داعي إلى تكذيبي ﴿فاستقيموا إليه واستغفروه﴾ أي توجهوا إليه بالاستقامة على التوحيد والإيمان ، والإخلاص في الأعمال ، واسألوه المغفرة لسالف الذنوب ﴿وويلٌ للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ أي دمارٌ وهلاك للمشركين الذين لا يفعلون الخير ، ولا يتصدقون ولا ينفقون في طاعة الله **قال القرطبي** : قرَّعهم بالشح الذي يأنف منه الفضلاء ، وفي الآية دلالة على أن الكافر يُعذَّب بمنع الزكاة مع عذابه على كفره[٤] **وقال ابن عباس** : المراد زكاة الأنفس والمعنى : لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد ، ولا يقولون لا إله إلا الله[٥] ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي كفروا بالبعث والنشور ، وكذَّبوا بالحساب والجزاء **قال الصاوي** : وإنما خصَّ منع الزكاة وقرنه بالكفر بالآخرة ، لأن المال شقيق الروح فإذا بذله الإنسان في سبيل الله كان دليلاً على قوته وثباته في الدين[٦] ﴿إنَّ الذين

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٨٣ . (٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٣٨ .

(٣) حاشية الصاوي ٤/ ١٧ . (٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٤٠ .

(٥) هذا القول ذكره ابن كثير ونسبه لابن عباس أن المراد به طهارة النفس من الشرك وهو قول مرجوح ، والصحيح ما ذكره المفسرون أن المراد زكاة المال وهو اختيار ابن جرير . (٦) حاشية الصاوي ٤/ ١٧ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا﴾

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ لهم أجرٌ غيرُ ممنون﴾ لما ذكر حال الكفار ووعيدهم ، أردفه بذكر حال المؤمنين وما لهم من الوعد الكريم والمعنى الّذين صدَّقوا الله ورسوله ، وجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، لهم في الآخرة أجرٌ غير مقطوع عند ربهم ، بل هو دائم مستمر بدوام الجنة ، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال **﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾** الاستفهام للتوبيخ والتعجب أي كيف تكفرون بالله وهو الإلهُ العليُّ الشأن ، القادر على كل شيء ، خالقُ الأرض في يومين ؟ **﴿وتجعلون له أنداداً﴾** أي تجعلون له شركاء وأمثالاً تعبدونها معه **﴿ذلك ربُّ العالمين﴾** أي ذلك الخالق المبدع هو ربُّ العالمين كلهم ، فكيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والمعبودية ؟ **قال الصاوي** : الاستفهام **﴿أئنكم﴾** للإنكار والتشنيع عليهم والمعنى : أنتم تعلمون أنه لا شريك له في العالم العلوي والسفلي ، فكيف تجعلون له شريكاً[1] ؟ **﴿وجعل فيها رواسي من فوقها﴾** أي جعل في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تميد بالبشر **﴿وبارك فيها﴾** أي أكثر خيرها بما جعل فيها من المياه ، والزروع ، والضروع **﴿وقدَّر فيها أقواتها﴾** أي قدَّر أرزاق أهلها ومعاشهم **قال مجاهد** : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها **﴿في أربعة أيامٍ سواءً للسائلين﴾** أي في تمام أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان[2] ، للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ﴾** أي عمد إلى خلقها وقصد إلى تسويتها وهي بهيئة الدخان **قال ابن كثير** : والمراد بالدخان بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض[3] **﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرْهاً﴾** أي استجيبا لأمري طائعتين أو مكرهتين **﴿قالتا أتينا طائعين﴾** أي قالت السموات والأرض أتينا أمرك طائعين **قال الزمخشري** : وهذا على التمثيل أي أنه تعالى اراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المُطاع ، والغرضُ تصوير أثر قدرته في المقدورات من غير أن يكون هناك خطاب وجواب ، ومثله قول القائل : قال الحائطُ للمسمار لم تشقني ؟ قال : سلْ من يدقُّني[4] ، وروي عن ابن عباس قال قال الله تعالى للسماء : أطلعي شمسك وقمرك ونجومك ، وقال للأرض : شققي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين « قالتا أتينا أمرك طائعتين »[5] واختاره ابن جرير **﴿فقضاهُنَّ سبْع سمواتٍ في يومين﴾** أي صنعهنَّ وأبدع خلقهن سبع سمواتٍ في وقت مقدَّر

---

(١) حاشية الصاوي ٤/١٨ . (٢) الكشاف ٤/١٤٧ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/٢٥٧ .
(٤) الكشاف ٤/١٤٨ . (٥) القرطبي ١٥/٣٤٣ .

ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾

بيومين ، فتمَّ خلق السمواتِ والأرض في ستة أيام ، ولو شاء لخلقهنَّ بلمح البصر ، ولكنْ أراد أن يعلّم عباده الحلم والأناة ﴿وأوحى في كل سماءٍ أمرها﴾ أي أوحى في كل سماء ما أراده ، وما أمر به فيها قال ابن كثير : أي رتَّب في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وزينَّا السماءَ الدنيا بمصابيح وحفظاً﴾ أي وزينَّا السماءَ الأولى القريبة منكم ، بالكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ، وحرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ذلك تقديرُ العزيز العليم﴾ أي ذلك المذكور من الخلق والإبداع هو صنع الله ، العزيز في ملكه ، العليم بمصالح خلقه ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقةِ عادٍ وثمود﴾ أي فإن أعرضوا عن الإيمان بعد هذا البيان ، فقل لهم : إني أخوفكم عذاباً هائلاً وهلاكاً مثل هلاك عاد وثمود[1] ، وعبَّر بالماضي إشارةً إلى تحققه وحصوله ﴿إذ جاءتهم الرسُل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أي حين جاءتهم الرسلُ من كل جوانبهم ، واجتهدوا في هدايتهم من كل جهة ، وأعملوافيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتوَّ والإعراض ﴿ألاَّ تعبدوا إلا الله﴾ أي بأن لا تعبدوا إلاَّ اللهَ وحده ﴿قالوا لو شاء ربُّنا لأنزل ملائكة﴾ أي لو شاء ربُّنا إرسالَ رسولٍ لجعله ملكاً لا بشراً ﴿فإنا بما أُرْسلتم به كافرون﴾ أي فإنا كافرون برسالتكم ، لا نتبعكم وأنتم بشرٌ مثلُنا ، وفي قولهم ﴿بما أرسلتم﴾ ضربٌ من التهكم والسخرية بهم ﴿فأمَّا عادٌ فاستكبروا في الأرضِ بغير الحقِّ﴾ هذا تفصيلٌ لما حلَّ بعاد وثمود من العذاب أي فأمَّا عادٌ فبغوا وعتوا وعصوا ، وتكبروا على عبادِ الله « هود » ومن آمن منهم معه، بغير استحقاقٍ للتعظم والاستعلاء ﴿وقالوا من أشدُّ منَّا قوة﴾ ؟ أي وقالوا اغتراراً بقوتهم لَمّا خُوِّفوا بالعذاب : لا أحد أقوى منا فنحن نستطيع أن ندفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا قال أبو السعود : كانوا ذوي أجسام طوال ، وخلق عظيم ، وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل فيقتلعها بيده[2] ﴿أولم يروْا أنَّ اللهَ الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوة﴾ جملة اعتراضية للتعجيب من مقالتهم الشنيعة والمعنى أغفلوا عن قدرة الله ولم يعلموا أن الله العظيم الجليل الذي خلقهم وخلق الكائنات ، هو أعظم منهم قوةً وقدرة ؟ ﴿وكانوا بآياتنا يجحدون﴾ أي وكانوا بمعجزاتنا يجحدون قال

(١) قال في الكشاف : أي عذاباً شديد الوقع كأنه صاعقة . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢١ .

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

الرازي : إنهم كانوا يعرفون أنها حقٌّ ولكنهم جحدوا كما يجحد المودعُ الوديعة[1] ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ أي فأرسلنا على عاد ريحاً باردة شديدة البرد ، وشديدة الصوت والهبوب ، تُهلك بشدة صوتها وبردها ﴿في أيام نحِسات﴾ أي في أيامٍ مشئومات غير مباركاتٍ ﴿لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ أي لكي نذيقهم العذاب المخزي المذل في الدنيا قال الرازي : ﴿عذابَ الخزي﴾ أي عذاب الهوان والذل، والسبب أنهم استكبروا عن الإيمان، فقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الذل والهوان إليهم[2] ﴿ولعذابُ الآخرةِ أخْزى وهم لا يُنصرون﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أعظم وأشدُّ إهانةً وخزياً من عذاب الدنيا ، وليس لهم ناصر يدفع عنهم ذلك العذاب ﴿وأمَّا ثمودُ فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي وأمَّا ثمود فبينا لهم طريق الهدى ، ودللناهم على سبيل السعادة ، فاختاروا الضلالة على الهداية ، والكفر على الإيمان ﴿فأخذتهم صاعقةُ العذاب الهُون﴾ أي فأخذتهم قارعة العذاب الموقع في الإهانة والذل ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي بسبب إجرامهم وطغيانهم وتكذيبهم لنبيِّ الله « صالح » قال ابن كثير : بعث الله عليهم صيحةً ورجفة وذلاً وهواناً ، وعذاباً ونكالاً ، بتكذيبهم صالح وعقرهم الناقة[3] ﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي ونجينا صالحاً ومن آمن به من ذلك العذاب .

* * *

قال الله تعالى :﴿ويومَ يُحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . . إلى . . وهم لا يسأمون﴾ من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣٨) .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة عاد وثمود ، وما أصابهم من العقوبة في الدنيا بطغيانهم وإجرامهم ، ذكر هنا ما يصيب الكفار عامة في الآخرة من العذاب والدمار ، ليحصل منه تمام الاعتبار ، في الزجر والتحذير عن ارتكاب المعاصي والكفر بنعم الله .

اللغة : ﴿يوزعون﴾ يُحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ﴿تستترون﴾ تستخفون ، من الاستتار بمعنى الاختفاء عن الأعين ﴿أرداكم﴾ أهلككم وأوقعكم في المهالك ﴿يستعتبوا﴾ يطلبوا رضاء الله ﴿المُعتبين﴾ جمع معتب وهو المقبول عتابه قال النابغة :

فإن أكُ مظلوماً فعبدٌ ظلمته   وإنْ تكُ ذا عتبى فمثلك يُعتب[4]

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ١١٢ . (٢) نفس المرجع السابق ٢٧/ ١١٣ . (٣) المختصر ٣/ ٢٥٩ . (٤) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٥٤ .

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾

﴿قيضنا﴾ هيأنا ﴿نُزُلاً﴾ ضيافة وكرامةً ﴿يسأمون﴾ يملُّون .

سَبَبُ النّزول : عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفرٍ : قرشيان وثقفي ، قليلٌ فقهُ قلوبهم ، كثيرٌ شحم بطونهم ، فقال أحدهم : أترون أنَّ الله يسمع ما نقول ؟ فقال أحدهم : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ، وقال الآخر : إن كان يسمع إن جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا ، فأنزل الله عز وجل ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعُكم ولا أبصاركم ولا جلودكم . .﴾[1] الآية .

التفسِير : ﴿ويومَ يُحشر أعداءُ اللَّهِ إلى النار﴾ أي واذكر يوم يُجمع أعداء الله المجرمون في أرض المحشر لسوقهم إلى النار ﴿فهم يُوزعون﴾ أي يُحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا قال ابن كثير : تجمع الزبانية أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا[2] ﴿حتى إذا ما جاءوها﴾ أي حتى إذا وقفوا للحساب ﴿شهد عليهم سمعُهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾ أي نطقت جوارحهم وشهدت عليهم بما اقترفوه من إجرامٍ وآثام ، وفي الحديث (فيُختم على فيه - أي فمه - ثم يُقال لجوارحه انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام فيقول : بُعداً لكُنَّ وسُحقاً ، فعنكنَّ كنت أناضل)[3] ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا﴾ أي وقالوا لأعضائهم وجلودهم توبيخاً وتعجباً من هذا الأمر الغريب : لم أقررتم علينا وشهدتم بما فعلنا وإنما كنا نجادل وندافع عنكم ؟ ﴿قالوا أنطقنا اللهُ الذي أنطق كل شيء﴾ أي قالوا معتذرين : ليس الأمر بيدنا وإنما أنطقنا الله بقدرته ، الذي ينطق الجماد والإنسان والحيوان ، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح ﴿وهو خلقكم أول مرة﴾ أي هو أوجدكم من العدم ، وأحياكم بعد أن لم تكونوا شيئاً ، فمن قدر على هذا قدر على إنطاقنا ﴿وإليه تُرجعون﴾ أي وإليه وحده تُردون بالبعث قال أبو السعود : المعنى ليس نطقنا بعجبٍ من قدرة الله ، الذي أنطق كل حي ، فإن من قدر على خلقكم وإنشائكم أولاً ، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ثانياً ، لا يُتعجب من إنطاقه لجوارحكم[4] ﴿وماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ أي وما كنتم تستخفون من هؤلاء الشهود في الدنيا حين مباشرتكم الفواحش ، لأنكم لم تظنوا أنها تشهد عليكم

---

(١) الحديث أخرجه مسلم كذا في القرطبي ١٥/ ٣٥١ .

(٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٦٠ . (٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم ، وفيه دلالة على أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة ، والله على كل شيء قدير . (٤) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٢ .

﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قال البيضاوي : أي كنتم تستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضيحة ، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم فما استخفيتم منها ، وفيه تنبيهٌ على أن المؤمن ينبغي ألاَّ يمر عليه حالٌ إلا وعليه رقيب[1] **﴿ولكنْ ظننتم أنَّ اللهَ لا يعلمُ كثيراً مما تعملون﴾** أي ولكنْ ظننتم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً من القبائح المخفية ، ولذلك اجترأتم على المعاصي والآثام **﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾** أي وذلكم الظنُّ القبيح برب العالمين ـ أنه لا يعلم كثيراً من الخفايا ـ هو الذي أوقعكم في الهلاك والدمار فأوردكم النار **﴿فأصبحتم من الخاسرين﴾** أي فخسرتم سعادتكم وأنفسكم وأهليكم ، وهذا تمام الخسران والشقاء **﴿فإن يصبروا فالنارُ مثوىً لهم﴾** أي فإن يصبروا على العذاب فالنارُ مقامهم ومنزلهم ، لا محيد ولا محيص لهم عنها **﴿وإن يستعتبوا فما هم من المُعتبين﴾** أي وإن يطلبوا إرضاء الله ، فما هم من المرضي عليهم ، **قال القرطبي** : والعُتبى : رجوعُ المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب ، تقول : استعتبتُه فأعتبني أي استرضيتُه فأرضاني[2] **﴿وقيَّضْنا لهم قُرناء﴾** أي هيأنا للمشركين ويسَّرنا لهم قرناء سوء من الشياطين ، ومن غواة الإنس **﴿فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾** أي حسَّنوا لهم أعمالهم القبيحة ، الحاضرة والمستقبلة **قال ابن كثير** : حسنوا لهم أعمالهم فلم يروا أنفسهم إلا محسنين[3] **﴿وحقَّ عليهم القول﴾** أي ثبت وتحقق عليهم كلمة العذاب ، وهو القضاء المحتَّم بشقائهم **﴿في أممٍ قد خلتْ من قبلهم من الجنِّ والإنس﴾** أي في جملة أمم من الأشقياء المجرمين قد مضت من قبلهم ، ممن فعلوا كفعلهم من الجنِّ والإنس **﴿إنهم كانوا خاسرين﴾** تعليلٌ لاستحقاقهم العذاب أي لأنهم كانوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة ، فلذلك استحقوا العذاب الأبدي **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن﴾** لما أخبر تعالى عن كفر عاد وثمود وغيرهم ، أخبر عن مشركي قريش وأنهم كذبوا القرآن والمعنى قال الكافرون بعضهم لبعض لا تستمعوا لمحمد إذا قرأ القرآن ، وتشاغلوا عنه **﴿والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾** أي ارفعوا أصواتكم عند قراءته حتى لا يسمعه أحد لكي تغلبوه على دينه **قال ابن عباس** : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول[4] **﴿فلنُذيقنَّ الذين كفروا**

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٥٦ . (٢) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٥٤ .
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٦١ . (٤) القرطبي ١٥/ ٣٥٦ .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾

عذاباً شديداً﴾ أي فوالله لنذيقنَّ هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن عذاباً شديداً لا يخف ولا ينقطع ﴿ولنجزينَّهم أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ أي ولنجازينهم بشر أعمالهم ، وسيء أفعالهم ، أسوأ وأقبح الجزاء ﴿ذلك جزاءُ أعداء اللَّهِ النَّارُ﴾ أي ذلك العذاب الشديد ـ الذي هو أسوأ الجزاء ـ هو نار جهنم جزاء المجرمين ، أعداء الله ورسوله ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ أي لهم في جهنم دار الإقامة ، لا يخرجون منها أبداً ﴿جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ أي جزاءً لهم على كفرهم بالقرآن ، واستهزائهم بآيات الرحمن قال الرازي : وسمَّى لغوهم بالقرآن جحوداً لأنهم لما علموا أن القرآن بالغٌ إلى حد الإعجاز ، خافوا إن سمعه الناس أن يؤمنوا به ، فاخترعوا تلك الطريقة الفاسدة ، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزاً إلا أنهم جحدوه حسداً[1] ﴿وقال الذين كفروا ربَّنا أرنا اللَّذين أضلاَّنا من الجنِّ والإنس﴾ أي ويقول الكفار إذا دخلوا جهنم ربنا أرنا كل من أغوانا وأضلنا من الجن والإنس ، وإنما جاء بلفظ الماضي « وقال » لتحققه ومعناه المستقبل قال أبو حيان : والظاهر أن المراد بـ ﴿اللَّذين﴾ يراد بهما الجنس أي كل مغوٍ من هذين النوعين[2] ﴿نجعلهما تحت أقدامنا﴾ أي نطأهما بأقدامنا انتقاماً وتشفياً ﴿ليكونا من الأسفلين﴾ أي ليكونا في الدرك الأسفل من النار ، وهي أشد عذاب جهنم لأنها درك المنافقين ، ولما ذكر تعالى حال الأشقياء المجرمين ، أردفه بذكر حال السعداء المؤمنين فقال ﴿إن الذينَ قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا﴾ أي آمنوا بالله إيماناً صادقاً وأخلصوا العمل له ، ثم استقاموا على توحيد الله وطاعته ، وثبتوا على ذلك حتى الممات ، عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر بعد أن تلا الآية الكريمة : « استقاموا واللهِ على الطريقة لطاعته ، ثم لم يروغوا روغان الثعالب »[3] والغرضُ : أنهم استقاموا على شريعة الله ، في سلوكهم ، وأخلاقهم وأقوالهم ، وأفعالهم ، فكانوا مؤمنين حقاً ، مسلمين صدقاً ، وقد سئل بعض العارفين عن تعريف الكرامة فقال : الاستقامةُ عينُ الكرامة ، وعن الحسن أنه كان يقول : اللهمَّ أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ﴿تتنزَّلُ عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا﴾ أي تتنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت بأن لا تخافوا ممَّا تقدمون عليه من أحوال القيامة ، ولا تحزنوا على ما خلفتموه في الدنيا من أهلٍ ومالٍ وولد فنحن نخلفكم فيه ﴿وأبشِروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ أي وأبشروا بجنة الخلد التي وعدكم الله بها على لسان الرسل قال شيخ زاده : إن الملائكة تتنزَّل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البشارة أن لا تخافوا من هول الموت ، ولا من هول القبر ، وشدائد يوم القيامة ، وإن المؤمن ينظر إلى حافظيه قائمين على رأسه يقولان له : لا تخف اليوم ولا تحزن ، وأبشر بالجنة التي كنت توعد ،

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ١٢٠ . (٢) البحر المحيط ٧/ ٤٩٥ . (٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٥٨ .

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ

وإنك سترى اليوم أموراً لم تر مثلها فلا تهولنك فإنما يراد بها غيرك[١] ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ أي تقول لهم الملائكة : نحن أنصاركم وأعوانكم في الدنيا والآخرة ، نرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم في الدارين ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفُسُكم ولكم فيها ما تدَّعون﴾ أي ولكم في الجنة ما تشتهيه نفوسكم ، وتقرُّ به عيونكم من أنواع اللذائذ والشهوات ، ولكم فيها ما تطلبون وتتمنون ﴿نُزلاً من غفور رحيم﴾ أي ضيافة وكرامة من ربٍ واسع المغفرة ، عظيم الرحمة لعباده المتقين ﴿ومن أحسنُ قولاً ممن دعا إلى الله﴾ أي دعا إلى توحيد الله وطاعته، بقوله وفعله وحاله، وفعل الصالحات، وجعل الإسلام دينه ومذهبه قال ابن كثير: وهذه الآية عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتدٍ[٢] وقال الزمخشري: والآيةَ عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون مؤمناً معتقداً لدين الإسلام، عاملاً بالخير ، داعياً إليه ، وما هم إلا طبقة العلماء العاملين[٣] ﴿ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئة﴾ أي لا يتساوى فعل الحسنة مع فعل السيئة ، بل بينهما فرقٌ عظيم في الجزاء وحسن العاقبة ﴿ادفعْ بالتي هي أحسنُ﴾ أي ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن ، مثل أن تدفع الغضب بالصبر ، والجهل بالحلم ، والإساءة بالعفو قال ابن عباس : ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك[٤] ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميمٌ﴾ أي فإذا فعلت ذلك صار عدوك كالصديق القريب ، الخالص الصداقة في مودته ومحبته لك ﴿وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا﴾ أي وما ينال هذه المنزلة الرفيعة ، والخصلة الحميدة، إلاَّ من جاهد نفسه بكظم الغيظ واحتمال الأذى ﴿وما يُلقَّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم﴾ أي وما يصل إليها وينالها إلا ذو نصيب وافر من السعادة والخير ﴿وإمَّا ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ فاستعذْ بالله﴾ أي وإن وسوس إليك الشيطان بترك ما أُمرت به من الدفع بالتي هي أحسن ، وأراد أن يحملك على البطش والانتقام ، فاستعذ بالله من كيده وشره ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي هو السميع لأقوال العباد ، العليم بأفعالهم وأحوالهم ، ثم ذكر تعالى دلائل قدرته الباهرة ، وحكمته البالغة فقال ﴿ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ﴾ أي ومن علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته تعاقب الليل والنهار ، وتذليل الشمس والقمر ، مسخَّرين لمصالح

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٢٦١ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٦٤ . (٣) الكشاف ٤/ ١٥٦ . (٤) القرطبي ١٥/ ٣٦١ .

﴿وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

البشر ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا للّهِ الذي خلقهن﴾ أي لا تسجدوا للمخلوق واسجدوا للخالق، الذي خلق هذه الأشياء وأبدعها ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي إن كنتم تفردونه بالعبادة فلا تسجدوا لأحدٍ سواه ﴿فإن استكبروا﴾ أي فإن استكبر الكفار عن السجود لله ﴿فالذين عند ربك يسبحونه بالليل والنهار﴾ أي فالملائكة الأبرار يعبدونه بالليل والنهار ﴿وهم لا يسأمون﴾ أي لا يملّون عبادته .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة. . إلى. . ألا إنه بكل شيء محيط﴾ من آية (٣٩) إلى نهاية آية (٥٤) .

المناسبة : لما ذكر تعالى صفات المؤمنين الأبرار، وأردفها بذكر الدلائل الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته، وكمال علمه وحكمته، ذكر هنا ما يدل على البعث والنشور، من صفحات هذا الكون المنظور، ثم أعقبه بذكر الملحدين في آياته، المكذبين برسله وأنبيائه، وختم السورة الكريمة ببيان حال الأشقياء المجرمين، المنكرين للقرآن العظيم .

اللغة : ﴿يُلحدون﴾ يميلون عن الحق والاستقامة، والإلحادُ : الميلُ والعدول يقال : ألحد في دين الله أي حاد عنه وعدل ﴿أعجمياً﴾ بلغة العجم ﴿وقرٌ﴾ صممٌ مانع من سماعه ﴿أكمامها﴾ جمع كُمٍّ وهو وعاء الثمرة بضم الكاف وكسرها ﴿محيص﴾ فرار ومهرب من حاص يحيصُ حيصاً إذا هرب ﴿نأى﴾ تباعد وأعرض ﴿الآفاق﴾ أقطار السموات والأرض ﴿مرية﴾ شك وارتياب عظيم .

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

التفسير : ﴿ومن آياتِهِ أنّك ترَى الأرض خاشعةً﴾ أي ومن البراهين والعلامات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، أنك ترى الأرض يابسة جرداء لا نبات فيها، تشبه الرجل الخاضع الذليل ﴿فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّت وربتْ﴾ أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت حركة شديدة وانتفخت وعلت بالنبات، وأخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿إن الذي أحياها لمُحيي الموتى﴾ أي إن الإِله الذي أحيا الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الأموات ويبعثهم من القبور ﴿إنه على كل شيءٍ قدير﴾ أي

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

لا يعجزه جل وعلا شيءٌ ، فكما أخرج الزروع والثمار من الأرض المجدبة ، فإنه قادر على إحياء الموتى . . ثم توعَّد تعالى من يلحد في آياته بعد ظهور الأدلة والبراهين على وجوده فقال ﴿إن الذين يُلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾ أي إن الذين يطعنون في آياتنا ، بالتحريف والتكذيب والإنكار لها لا يغيب أمرهم عنا فنحن لهم بالمرصاد ، وفيه وعيد وتهديد قال قتادة : الإلحادُ الكفر والعناد وقال ابن عباس : هو تبديلُ الكلام ووضعه في غير موضعه[١] ﴿أفمن يُلقى في النار خيرٌ أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾ أي أفمن يُطرح في جهنم مع الخوف والفزع أفضل أم من يكون في الجنة آمناً من عذاب الله يوم القيامة ؟ قال الرازي : والغرضُ التنبيهُ على أن الملحدين في آيات الله يُلقون في النار ، وأن المؤمنين بآيات الله يكونون آمنين يوم القيامة ، وشتَّان ما بينهما[٢] ﴿اعملوا ما شئتم﴾ أي افعلوا ما تشاءون في هذه الحياة ، وهو تهديدٌ لا إباحة ملفَّع بظل الوعيد ، بدليل قوله تعالى ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ أي هو تعالى مطّلع على أعمالكم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ، وسيجازيكم عليها ﴿إنَّ الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ أي إن الذين كذبوا بالقرآن حين جاءهم من عند الله ، وخبر « إنَّ » محذوفٌ لتهويل الأمر كأنه قيل : سيجازون بكفرهم جزاءً لا يكاد يوصف لشدة بشاعته وفظاعته[٣] ﴿وإنه لكتابٌ عزيز﴾ أي وإنه لكتاب غالب بقوة الحجة ، لا نظير له لما احتوى عليه من الإعجاز ، يدفع كل جاحد ، ويقمع كلَّ معاند ﴿لا يأْتيه الباطلُ من بين يديه ولا منْ خلفه﴾ أي لا يتطرق إليه الباطل من جهةٍ من الجهات ، ولا مجال للطعن فيه قال ابن كثير : أي ليس للبطلان إليه سبيل ، لأنه منزَّل من رب العالمين[٤] ﴿تنزيلٌ من حكيم حميد﴾ أي هو تنزيلٌ منَ إله حكيم في تشريعه وأحواله وأفعاله ، محمود من خلقه بسبب كثرة نعمه . . ثم سلَّى تعالى نبيَّه على ما يصيبه من أذى الكفار فقال ﴿ما يُقال لك إلاَّ ما قد قيل للرسُل من قبلك﴾ أي ما يقول لك كفار قومك ، إلاَّ ما قد قال الكفار للرسل قبلهم من الكلام المؤذي ، والطعن فيما أنزل الله قال القرطبي : يُعزّي نبيه ويُسلّيه من أذى وتكذيب قومه[٥] ﴿إنَّ ربَّك لذو مغْفرة وذُو عقاب أليم﴾ أي إن ربك يا محمد لهو الغفور لذنوب المؤمنين ، ذو العقاب الشديد للكافرين ، ففوِّضْ أمرك إليه فإنه ينتقم لك من أعدائك ، ثم ذكر تعالى تعنُّت الكافرين ومكابرتهم للحقِّ بعد سطوعه وظهوره

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٦٦ . (٢) التفسير الكبير ٢٧/ ١٣١ . (٣) هذا رأي أكثر المفسرين واختار أبو حيان في البحر المحيط أن الخبر مذكور وهو ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه﴾ ولكنه حذف منه العائد ، والأول أظهر .
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٦٥ . (٥) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٦٧ .

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ﴾

فقال ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً﴾ أي لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم ﴿لقالوا لولا فُصِّلت آياته﴾ أي لقال المشركون : هلاَّ بُيِّنت آياته بلسانٍ نفهمه وهلاَّ نزل بلغتنا ﴿أأعجميٌ وعربيٌ﴾ ؟ استفهام إنكاري أي أقرآن أعجميٌ ونبيٌ عربي ؟ قال الرازي : ذكروا أن الكفار كانوا يقولون لتعنتهم : هلاَّ نزل القرآن بلغة العجم ؟ ! فأجيبوا بأن الأمر لو كان كما تقترحون لم تتركوا الاعتراض ، ثم قال : والحقُّ عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحدٌ متعلق بعضُه ببعض ، وقد حكى تعالى عنهم في أول السورة أنهم قالوا ﴿قُلوبنا في أكنَّةٍ ممَّا تدعونا إليه﴾ فردَّ تعالى عليهم هنا بأنه لو أنزل هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا : كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب ! ! ولصحَّ لهم أن يقولوا ﴿قلوبُنا في إكنةٍ ممَّا تدعونا إليه﴾ لأنا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه ! ! أما وقد نزل بلغة العرب ، وهم من أهل هذه اللغة ، فكيف يمكنهم أن يقولوا ذلك ؟ فظهر أن الآية على أحسن وجوه النظم[1] ﴿قُلْ هو للذين آمنوا هدىً وشِفاءٌ﴾ أي قل لهم يا محمد : إن هذا القرآن هدى للمؤمنين من الضلالة ، وشفاء لهم من الجهل والشك والريب ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ﴾ أي والذين لا يصدّقون بهذا القرآن ، في آذانهم صممٌ عن سماعه ، ولذلك تواصوا باللغو فيه ﴿وهو عليهم عمى﴾ أي كما أن هذا القرآن رحمة للمؤمنين ، هو شقاء وتعاسة على الكافرين كقوله تعالى ﴿وننزِّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ قال في حاشية البيضاوي : إن القرآن لوضوح آياته ، وسطوع براهينه ، هادٍ إلى الحق ، ومزيل للريب والشك ، وشفاء من داء الجهل والكفر والارتياب ، ومن ارتاب فيه ولم يؤمن به ، فارتيابه إنما نشأ عن توغله في اتباع الشهوات ، وتقاعده عن تفقد ما يُسعده وينجيه[2] ﴿أولئك يُنادون من مكانٍ بعيدٍ﴾ أي أولئك الكافرون بالقرآن ، كمن يُنادى من مكان بعيد ، فإنه لا يسمع ولا يفهم ما يُنادى به ، وهذا على سبيل التمثيل قال ابن عباس : يريد مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاءً ونداءً[3] ﴿ولقدْ آتينا موسى الكِتابَ فاختُلف فيه﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة فاختلف فيها قومه ما بين مصدِّقٍ لها ومكذِّب ، هكذا حال قومك بالنسبة للقرآن قال القرطبي : وهذا تسلية للنبي ﷺ أي لا يحزنك اختلاف قومك في كتابك ، فقد اختلف من قبلهم في كتابهم ، فآمن به

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ١٣٣ وهذا الذي ذكره الإمام الفخر هو الأظهر ، فإنهم لم يقترحوا أن ينزل بلغة العجم وإنما هو على سبيل الفرض بدليل ﴿ولو أنزلناه قرآناً أعجمياً لقالوا﴾ وهذا الذي رجحناه هو ما ذهب إليه العلامة القرطبي حيث قال في تفسير الآية : المعنى لو جعلنا هذا القرآن بلغة غير العرب لقالوا لولا بيِّنت آياته بلغتنا فإنا عرب لا نفهم الأعجمية ، فبيَّن تعالى أنه أنزل بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز ، إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً ، وإذا عجزوا عن معارضته فذلك أدل دليل على أنه من عند الله . (٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٢٦٥ . (٣) التفسير الكبير ٢٧/ ١٣٤ .

عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى

قوم وكذَّب به قوم[1] ﴿ولـولا كلمـةٌ سبقـت من ربِّـك لقُضِـي بينهـم﴾ أي ولولا أن الله حكم بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة لعذَّبهم وأهلكهم في الدنيا ﴿وإنهـم لفـي شكٍّ منـه مُريـب﴾ أي وإن هؤلاء الكفار لفي شكٍ من القرآن ، لتبلد عقولهم وعمى بصائرهم ، موقع لهـم في أشـد الريبـة والاضطراب ﴿مـن عمِـل صالحاً فلِنفسـه ومن أسـاءَ فعلَيْهـا﴾ أي من عمل شيئاً من الصالحات في هذه الدنيا فإنما يعود نفع ذلك على نفسه ، ومن أساء في الدنيا فإنما يرجع وبال ذلك وضرره عليه ﴿ومـا ربُّـك بظـلاَّمٍ للعبيـد﴾ أي وليس الله منسوباً إلى الظلم حتى يعذِّب بغير إساءة ، فهو تعالى لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يعاقبه إلا بجرمه قال المفسرون : ليست صيغة « ظـلاَّم » هنا للمبالغة ، وإنما هي صيغة نسبة مثل عطَّار ، ونجَّار ، وتمَّار ، ولو كانت للمبالغة لأوهم أنه تعالى ليس كثير الظلم ولكنه يظلم أحياناً ، وهذا المعنى فاسد لأنه يستحيل عليه الظلم جل وعلا ﴿إليـه يُـردُّ علـمُ السَّاعـة﴾ أي إليه تعالى وحده علم وقت الساعة لا يعلمه غيره قال الإمام الفخر : أي لا يعلم وقت الساعة بعينه إلا اللهُ ، ومناسبتُها لما قبلها أنه تعالى لما هدَّد الكفار بقوله ﴿من عمـل صالحـاً فلنفسـه ومن أساء فعليـها﴾ ومعناه أن جزاء كل أحدٍ يصل إليه في يوم القيامة ، فكأن سائلاً قال : ومتى يكون ذلك اليوم ؟ فبيَّن تعالى أن معرفة ذلك اليوم لا يعلمه إلا الله[2] ﴿ومـا تخْـرُجُ مـن ثمـراتٍ مـن أكمامهـا﴾ أي وما تخرج ثمرةٌ من الثمرات من غلافها ووعائها ﴿ومـا تحمـلُ من أنثـى ولا تضـع إلا بعلمـه﴾ أي ولا تحمل أنثى جنيناً في بطنها . ولا تلده إلا ملتبساً بعلمه تعالى ، لا يعزبُ عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء[3] ﴿ويـوم يُناديهـم أيـن شركائـي﴾ ؟ أي ويوم القيامة ينادي الله المشركين أين شركائي الذين زعمتم أنهم آلهـة ؟ وفيه تقـريعٌ وتهكمٌ بهم ﴿قالـوا آذنَّـاك ما منّـا من شهـيد﴾ أي قال المشركون : أعلمناك وأخبرناك الآن بالحقيقة ما منَّا من يشهد اليوم بأنَّ لك شريكاً قال المفسرون : لما عاينوا القيامة تبرءوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم ، وأعلنوا إيمانهم وتوحيدهم في وقت لا ينفع فيه إيمـان ﴿وضـلَّ عنهـم ما كانـوا يدعُـون من قبـل﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من الآلهة المزعومة ﴿وظنـوا ما لهـم من محيـص﴾ أي وأيقنوا أنه لا مهرب ولا مخلص لهم من عذاب الله ﴿لا يسـأمُ الإنسـانُ من دُعاءِ الخيـر﴾ أي لا يملُّ الإنسان من سؤ اله

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٧٠ . (٢) التفسير الكبير ٢٧/ ١٣٦ . (٣) قال في الظلال : « ويذهب القلب يتتبَّع الثمرات في أكمامها ، والأجنَّة في أرحامها ، ويطوف في جنبات الأرض يرقب الأكمام التي لا تحصى ، ويتصور الأجنة التي لا يحصرها خيال ، وترتسم في الضمير صورة رائعة لعلم الله ، بقدر ما يطيق القلب البشري أن يتصور من الحقيقة التي ليس لها حدود » ظلال القرآن ٢٤/ ١٤٠ .

وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ

ودعائه بالخير لنفسه ، كالمال والصحة والعز والسلطان ﴿وإن مسَّه الشرُّ فيؤوسٌ قنوط﴾ أي وإن أصابه فقر أو مرض فهو عظيم اليأس ، قانطٌ من روح الله ورحمته ﴿ولئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضراء مسته﴾ أي ولئن أعطيناه غنى وصحة من بعد شدة وبلاء ﴿ليقولنَّ هذا لي﴾ أي ليقولنَّ هذا بسعْيي واجتهادي **قال أبو حيان** : سمَّى النعمة رحمة إذ هي من آثار رحمة الله[1] ﴿وما أظنُّ الساعةَ قائمةً﴾ أي وما أعتقد أن القيامة ستكون ﴿ولئن رُجعتُ إلى ربِّي إنَّ لي عنده للحُسنى﴾ أي وعلى فرض أن القيامة حاصلة ، فليحسننَّ إليَّ ربي كما أحسن إليَّ في هذه الدنيا **قال ابن كثير** : يتمنى على الله عز وجل مع إساءته العمل وعدم اليقين[2] ﴿فلننبئنَّ الذين كفروا بما عملوا﴾ أي فواللهِ لنعلِمنَّ هؤلاء الكافرين بحقيقة أعمالهم ، ولنبصرنَّهم بإجرامهم ﴿ولنذيقنَّهم من عذابٍ غليظ﴾ أي ولنعذبنَّهم أشد العذاب ، وهو الخلود في نار جهنم ﴿وَإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض عن شكر ربه ، واستكبر عن الانقياد لأوامره ، وشمخ بأنفه تكبراً وترفعاً ﴿وإذا مسَّه الشرُّ فذو دعاءٍ عريض﴾ أي وإذا أصابه المكروه فهو ذو دعاء كثير ، يديم التضرع ويكثر من الابتهال ، وهكذ طبيعة الإنسان الجحود والنكران ، يعرف ربه في البلاء وينساه في الرخاء **قال الرازي** : استعير العرض لكثرة الدعاء ، كما استعير الغلظ لشدة العذاب[3] ﴿قُلْ أرأيتُمْ إنْ كانَ من عندِ اللَّهِ ثم كفرتم به﴾ أي قل لهم يا محمد : أخبروني يا معشر المشركين ، إن كان هذا القرآن من عند الله ، وكفرتم به من غير تأمل ولا نظر ، كيف يكون حالكم ؟ ﴿من أضلُّ ممن هو في شقاقٍ بعيد﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أضلُّ منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم ، **قال أبو السعود** : وضع الموصول « من أضلُّ » موضع الضمير « منكم » شرحاً لحالهم ، وتعليلاً لمزيد ضلالهم[4] ﴿سنريهم آياتنا﴾ أي سنظهر لهؤلاء المشركين دلالاتنا وحججنا على أن القرآن حقٌ منزل من عند الله ﴿في الآفاق﴾ أي في أقطار السمواتِ والأرض من الشمس والقمر والنجوم ، والأشجار والنبات وغير ذلك من العجائب العلوية والسفلية ﴿وفي أنفسهم﴾ أي وفي عجائب قدرة الله في خلقهم وتكوينهم **قال القرطبي** : المراد ما في أنفسهم من لطيف الصنعة ، وبديع الحكمة ، حتى سبيل الغائط والبول ، فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد ، ويتميز ذلك من مكانين ، ومن بديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ، ينظر بهما من

(١) البحر المحيط ٧/ ٥٠٤ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٦٧ . (٣) التفسير الكبير ٢٧/ ١٣٨ . (٤) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٧ .

﴿كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾

الأرض إلى السماء ، مسيرة خمسمائة عام ، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة ، وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه[1] ﴿حتى يتبيَّن لهم أنه الحقُّ﴾ أي حتى يظهر لهم أن هذا القرآن حق ﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيءٍ شهيد﴾ ؟ أي أولم يكفهم برهاناً على صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ وأنه مطَّلع على كل شيء لا تخفى عليه خافية ؟ ﴿ألا إنَّهم في مريةٍ من لقاءِ ربِّهم﴾ ألا استفتاحٌ لتنبيه السامع إلى ما يقال أي ألا فانتبهوا أيها القوم إن هؤلاء المشركين في شكٍ من الحساب والبعث والجزاء ، ولهذا لا يتفكرون ولا يؤمنون ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ أي ألا فانتبهوا فإنه تعالى قد أحاط علمه بكل الأشياء جملة وتفصيلاً ، فهو يجازيهم على كفرهم .

البَـلاغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿بشيراً . . ونذيراً﴾ وبين ﴿طوعاً . . وكرهاً﴾ وبين ﴿ما بين أيديهم . . وما خلفهم﴾ وبين ﴿الحسنة . . والسيئة﴾ وبين ﴿مغفرة . . وعقاب﴾ وبين ﴿أعجمي . . وعربي﴾ وبين ﴿تحمل . . وتضع﴾ وبين ﴿الخير . . والشر﴾ .

٢ ـ طباق السلب ﴿لا تسجدوا للشمس . . واسجدوا لله﴾ وكذلك ﴿آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون﴾ .

٣ ـ الالتفات ﴿فإن أعرضوا﴾ بعد قوله ﴿قل ائنكم لتكفرون﴾ وهو التفات من الخطاب الى الغيبة ، وناسب الإعراض عن مخاطبتهم لكونهم أعرضوا عن الحق ، وهو تناسب حسن .

٤ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً﴾ مثَّل تأثير قدرته تعالى في السموات والأرض بأمر السلطان لأحد رعيته أو عبيده بأمر من الأمور وامتثال الأمر سريعاً .

٥ ـ الاستعارة التصريحية ﴿وقالوا قلوبنا في أكنةٍ مِمّا تدعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ﴾ ليس هناك على الحقيقة شيء مما قالوه ، وإنما أخرجوا هذا الكلام مخرج الدلالة على استثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن ، وجوامع البيان ، فكأنهم من شدة الكراهية له قد صُمَّت أسماعهم عن فهمه ، وقلوبهم عن علمه .

٦ ـ الاستعارة أيضاً ﴿أولئك يُنادون من مكانٍ بعيد﴾ شبّه حالهم في عدم قبول المواعظ ، وإعراضهم عن القرآن وما فيه بحال من يُنادى من مكان بعيد ، فلا يسمع ولا يفهم ما يُنادى به ، والجامع عدم الفهم في كلٍ .

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٧٥ .

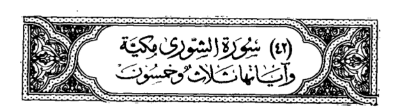
٨ ـ الأمر التهديدي ﴿اعملوا ما شئتم﴾ خرج الأمر عن صيغته الأصلية إلى معنى الوعيد والتهديد .

٩ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنه ولي حميم﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فهو مرسل مجمل .

١٠ ـ إن اللسان عاجز عن تصوير البلاغة في جمال الأسلوب القرآني ، فتأمل الروعة البيانية في قوله تعالى ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ وتصور التناسق الفني في التعبير والأداء ، وتأمل لفظ الخشوع والاهتزاز والانتفاخ للأرض الميتة يبعثها الله كما يبعث الموتى من القبور ، إنه جو بعث وإخراج وإحياء ، ويا له من تصوير رائع يأخذ بالألباب .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة فُصِّلت »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* هذه السورة الكريمة مكية ، وموضوعها نفس موضوع السور المكية التي تعالج أمور العقيدة « الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء » والمحور الذي تدور عليه السورة هو « الوحي والرسالة » وهو الهدف الأساسي للسورة الكريمة .

* تبتدىء السورة بتقرير مصدر الوحي ، ومصدر الرسالة ، فاللهُ ربُّ العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين ، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده ، ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور الهداية والإيمان .

* ثم تعرض لحالة بعض المشركين ، ونسبتهم لله الذرية والولد ، حتى إنَّ السموات ليكدْن يتفطرن من هول تلك المقالة الشنيعة ، وبينما هؤلاء المشركون في ضلالهم يتخبطون ، إذا بالملأ الأعلى في تسبيحهم وتمجيدهم لله يستغرقون ، وذلك للمقارنة بين كفر أهل الأرض وطغيانهم ، وإيمان أهل السماء وإذعانهم .

* ثم تعود السورة للحديث عن حقيقة الوحي والرسالة ، فتقرر أن الدين واحدٌ أرسل الله تعالى به جميع المرسلين ، وأن شرائع الأنبياء وإن اختلفت إلاَّ أن دينهم واحد ، وهو الإسلام الذي بعث به نوحاً وموسى وعيسى وسائر الرسل الكرام ﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ .

* وتنتقل السورة للحديث عن المكذبين بالقرآن ، المنكرين للبعث والجزاء ، وتنذرهم بالعذاب الشديد في يومٍ تشيب له الرءوس وتطير لهوله الأفئدة ، بينما هم في الدنيا يهزءون ويسخرون ، ويستعجلون قيام الساعة .

* وبعد أن تتحدث السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور ، الذي هو أثر من آثار صنع الله الباهر وحكمته وقدرته ، تدعو الناس إلى الاستجابة لدعوة الله والانقياد والاستسلام لحكمه قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العصيب ، الذي لا ينفع فيه مال ولا قريب ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من الله﴾ .

* وتختم السورة بالحديث عن الوحي وعن القرآن ، كما بدأت به في مطلع السورة الكريمة ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

ليتناسق الكلام في البدء والختام﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان . .﴾ الآية .

التسميَـة : سميت « سورة الشورى » تنويهاً بمكانة الشورى في الإسلام ، وتعليماً للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل « منهج الشورى » لما له من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع كما قال تعالى﴿ وأمرهم شورى بينهم﴾ .

* * *

اللغَـة : ﴿يتفطَّرْن﴾ يتشققن ، والفطور : الشقوق ومنه﴿ وما لها من فطور﴾ ﴿فاطر﴾ خالق ومبدع ومخترع ﴿يوم الجمع﴾ يوم القيامة لاجتماع الخلائق فيه ﴿أم القرى﴾ مكة المكرمة ﴿يذرؤكم﴾ ينشئكم ويكثّركم ﴿مقاليد﴾ مفاتيح جمع إقليد على غير قياس ﴿شرع﴾ بيَّن وسنَّ وأوضح ﴿كَبر﴾ عظم وشقَّ ﴿ينيب﴾ يرجع ويتوب من ذنبه ﴿مريب﴾ موقع في الريبة والقلق ﴿داحضة﴾ باطلة وزائلة يقال : دحضت حجته أي بطلت ، ودَحضت رجله أي زلقت .

التفسِـير : ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[1] ، وإثارة انتباه الإنسان بحروف أولية ، وبدءٍ غير مألوف ﴿كذلك يُوحي إليكَ وإلى الذين مِن قبْلِك اللَّهُ العزيزُ الحكيم﴾ أي مثل ما أوحى إليك ربك يا محمد هذا القرآن ، أوحى إلى الرسل من قبلك في الكتب المنزلة ، اللهُ العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ﴿لهُ ما في السمٰواتِ وما في الأرض﴾ أي له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿وهو العليُّ العظيمُ﴾ أي هو المتعالي فوق خلقه ، المنفرد بالكبرياء والعظمة ﴿تكادُ السَّمٰواتُ يتفطَّرن مِنْ فوقِهنَّ﴾ أي تكاد السمواتُ يتشققن من عظمة الله وجلاله ، ومن شناعة ما يقوله المشركون من اتخاذ الله الولد ﴿والملائكةُ يسبّحون بحمدِ ربهم﴾ أي والملائكةُ الأبرار دائبون في تسبيح الله ، ينزهونه عما لا يليق به ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ أي ويطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين قال في التسهيل : والآية عمومٌ يراد به الخصوص لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض ، فهي كقوله تعالى ﴿ويستغفرون للَّذين آمنوا﴾[2] ﴿ألاَ إنَّ اللَّهَ

(١) انظر تفصيل القول في أول سورة البقرة . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧ .

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾

هو الغفورُ الرحيم﴾ أي ألاَ فانتبهوا أيها القوم إن الله هو الغفور لذنوب عباده ، الرحيم بهم حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم قال القرطبي ؟ هيَّب وعظَّم جل وعلا في الابتداء ، وألطف وبشَّر في الانتهاء[1] ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ أي جعلوا له شركاء وأنداداً ﴿اللهُ حفيظٌ عليهم﴾ أي اللهُ تعالى رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم ، لا يفوته منها شيءٌ ، وهو محاسبُهم عليها ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي وما أنت يا محمد بموكَّل على أعمالهم حتى تقسرهم على الايمان ، إنما أنت منذرٌ فحسب ﴿وكذلك أوْحينا إليك قُرآناً عربياً﴾ أي وكما أوحينا إلى الرسل قبلك أوحينا إليك يا محمد قرآناً عربياً معجزاً ، بلسان العرب لا لبس فيه ولا غموض ﴿لتُنذِر أمَّ القُرى ومن حولها﴾ أي لتنذر بهذا القرآن أهل مكة ومن حولها من البلدان قال الإمام الفخر : وأمُّ القُرى أصلُ القرى وهي مكة ، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها ، لأن فيها البيت ومقام إبراهيم ، والعربُ تسمي أصل كل شيءٍ أمه ، حتى يقال : هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان[2] ﴿وتُنذِر يومَ الجمْع﴾ أي وتخوِّف الناس ذلك اليوم الرهيب ، يوم اجتماع الخلائق للحساب في صعيدٍ واحد ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في وقوعه ، ولا محالة من حدوثه ﴿فريقٌ في الجنةِ وفريقٌ في السعير﴾ أي فريقٌ منهم في جنات النعيم وهم المؤمنون ، وفريق منهم في دركات الجحيم وهم الكافرون ، حيث ينقسمون بعد الحساب إلى أشقياء وسعداء كقوله تعالى ﴿فمنهم شقيٌ وسعيدٌ﴾ ﴿ولو شاء اللهُ لجعلهم أُمَّةً واحدةً﴾ أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم مهتدين ، أهل دينٍ واحدٍ وملةٍ واحدة وهي الإسلام قال الضحاك : أهل دينٍ واحد ، أهل ضلالةٍ أو أهل هُدى[3] ﴿ولكنْ يُدخِلُ منْ يشاءُ في رحمته﴾ أي ولكنَّه تعالى حكيمٌ لا يفعل إلاَّ ما فيه المصلحة ، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه فيدخله بذلك في جنته ، ومن علم منه اختيار الضلال يضلُّه فيدخله بذلك السعير ولهذا قال ﴿والظَّالمون ما لهُم من وليٍّ ولا نصير﴾ أي والكافرون ليس لهم وليٌّ يتولاهم يوم القيامة ، ولا نصيرٌ ينصرهم من عذاب الله قال أبو حيان : والآية تسليةٌ للرسول ﷺ عمَّا كان يقاسيه من كفر قومه ، وتوقيفٌ على أنَّ ذلك راجعٌ إلى مشيئته جل وعلا ، ولكنْ من سبقت له السعادة أدخله في رحمته يعني دين الإسلام[4] ﴿أم اتَّخذوا من دُونه أولياءَ﴾ استفهامٌ على سبيل الإنكار أي بل اتخذ المشركون من دون الله آلهة ، يستعينون بهم ، ويطلبون نصرهم وشفاعتهم ؟ ﴿فاللَّهُ هو الوليُّ﴾ أي فاللهُ وحده هو

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٥ . (٢) التفسير الكبير ٢٧/ ١٤٧ .
(٣) تفسير القرطبي ١٦/ ٦ . (٤) البحر المحيط ٧/ ٥٠٩ .

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

الوليُّ الحقُّ ، الناصرُ للمؤمنين ، لا وليَّ سواه ﴿وهو يُحيي المَوتى﴾ أي هو تعالى القادر على إحياء الموتى ، لا تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿وهو على كُلِّ شيءٍ قدير﴾ أي لا يعجزه شيء فهو الحقيق بأن يُتخذ ولياً دون من سواه ﴿وما اختلفتُم فيهِ من شيءٍ فحكمُه إلى اللّهِ﴾ أي وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون من شيء من أمر الدنيا أو الدين ، فالحكم فيه إلى الله جل وعلا ، هو الحاكم فيه بكتابه أو بسنة نبيه عليه السلام ﴿ذلكم اللهُ ربّي﴾ أي الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده ،وكِيِّي ومالك أمري قال القرطبي : وفيه إضمارٌ أي قل لهم يا محمد : ذلكم الذي يحْيي الموتى ، ويحكم بين المختلفين هو ربّي[1] ﴿عليه توكلتُ﴾ أي عليه وحده اعتمدت في جميع أموري ﴿وإليه أنيبُ﴾ أي وإليه وحده أرجع في كل ما يعرض عليَّ من مشكلاتٍ ومعضلات ، لا إلى أحدٍ سواه قال الرازي : والعبارة تفيد الحصر أي لا أتوكل إلا عليه ، ولا أنيب إلا إليه ، وهو إشارة إلى تزييف طريقة من اتخذ غير الله ولياً[2] .. ثم بيَّن تعالى صفاته الجليلة القدسية ، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية فقال ﴿فاطر السمٰواتِ والأرض﴾ أي هو جل وعلا خالقهما ومبدعهما على غير مثالٍ سابق ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي أوجد لكم بقدرته من جنسكم نساءً من الآدميات ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي وخلق لكم كذلك من الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافاً ، ذكوراً وإناثاً ﴿يذْرؤُكم فيه﴾ أي يكثّركم بسببه بالتوالد ، ولولا أنه خلق الذكر والأنثى لما كان ثَمة تناسلٌ ولا توالدٌ ﴿ليس كمِثلِه شيءٌ﴾ أي ليس له تعالى مثيلٌ ولا نظير ، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فهو الواحد الأحد ، الفردُ الصمد والغرضُ : تنزيهُ الله تعالى عن مشابهة المخلوقين ، والكاف هنا لتأكيد النفي أي ليس مثله شيءٌ ، قال ابن قتيبة : العربُ تقيم المثل مقام النفس فتقول : مثلي لا يُقال له هذا أي أنا لا يُقال لي هذا ، ومعنى الآية ليس كالله جل وعلا شيءٌ[3] وقال القرطبي : والذي يُعتقد في هذا الباب أن الله ـ جلَّ اسمُه ـ في عظمته وكبريائه ، وملوكته وحُسنى أسمائه ، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، ولا يُشبَّه به أحد ، وما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي ، إذْ صفاتُ القديم ـ عزَّ وجلَّ ـ بخلاف صفات المخلوق ، وإذْ صفاتُهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض ، وهو تعالى منزَّه عن ذلك ، وقد قال بعض المحققين : التوحيدُ إثباتُ ذاتٍ غير مشبهةٍ للذوات ، ولا معطَّلة من الصفات ، وزاد الواسطيُّ فقال : ليس كذاته ذات ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، وهذا مذهب أهل الحق ، أهل السنة والجماعة[4] ﴿وهو السميع البصير﴾ أي وهو

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٧ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ١٤٩ .
(٣) انظر حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ٥٥ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/ ٨ .

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

تعالى السميع لأقوال العباد ، البصير بأفعالهم ﴿لـه مقاليدُ السمٰوات والأرض﴾ أي بيده جل وعلا مفاتيح خزائنهما من المطر والنبات وسائر الحاجات ﴿يبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدر﴾ أي يوسِّعُ الرزق على من يشاء ، ويضيّق على من يشاء ، حسب الحكمة الإلهية ﴿إنه بكل شيء عليم﴾ تعليل لما سبق أي لأن علمه تعالى محيط بكل الأشياء ، فهو واسع العلم ، يعلم إذا كان الغنى خيراً للعبد أو الفقر ﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك﴾ أي سنَّ وبيَّن لكم أيها المؤمنون من الشريعة السمحة والدين الحنيف ، ما وصَّى به الرسل ، وأرباب الشرائع من مشاهير الأنبياء ، كنوح ومحمد عليه السلام ﴿وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ أي وما أمرنا به بطريق الإلزام إبراهيم وموسى وعيسى من أصول الشرائع والأحكام قال الصاوي : خصَّ هؤلاء بالذكرَ لأنهم أكابر الأنبياء ، وأولوا العزم ، وأصحاب الشرائع المعظمة ، فلكل واحد من هؤلاء الرسل شرعٌ جديد ، وأمَّا من عداهم ، فإنما كان يبعث بتبليغ شرع من قبله ، ولم يزل الأمر يتأكد بالرسل ، ويتناصر بالأنبياء ، واحداً بعد واحد ، وشريعةً إثر شريعة ، حتى ختمها الله بخير الملل ، ملةِ أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ ، فتبيَّن أن شرعنا معشر الأمة المحمدية قد جمع جميع الشرائع المتقدمة في أصول الاعتقادات ، وأصول الأحكام[1] ولهذا قال تعالى ﴿أن أقيموا الدينَ ولا تتفرقوا فيه﴾ أي وصيناهم بأن أقيموا الدين الحق - دين الإسلام - الذي هو توحيدُ الله وطاعتُه ، والإيمان بكتبه ورسله ، وبالبعث والجزاء قال القرطبي : المراد اجعلوا الدين قائماً مستمراً محفوظاً من غير خلافٍ فيه ولا اضطراب ، في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي : التوحيد ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وغيرها ، فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملة متحدة[2] . ﴿كبُر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ أي عظُم وشقَّ على الكفار ما تدعوهم إليه من عبادة الله ، وتوحيد الواحد القهار ﴿اللهُ يجتبي إليه من يشاءُ ويهدي إليه من يُنيب﴾ أي اللهُ يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد من يشاء من عباده ، ويهدي إلى دينه الحق من يرجع إلى طاعته ، فيوفقه له ويقربه إليه رحمةً وإكراماً ﴿وما تفرَّقوا إلاَّ من بعدِ ما جاءهُم العِلمُ﴾ أي وما تفرَّق أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم إلاَّ من بعد ما قامت عليهم الحجج والبراهين من النبي المرسل إليهم ﴿بغياً بينهم﴾ أي ظلماً وتعدياً ، وحسداً وعناداً ﴿ولولا كلمةٌ سبقت من ربِّك إلى أجلٍ مسمَّى﴾ أي ولولا أن الله قضى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ﴿لقُضِي بينهم﴾ أي لعجَّل لهم

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٣٢ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ١١ .

لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

العقوبة في الدنيا سريعاً باستئصالهم قال ابن كثير : أي لولا الكلمة السالفة من الله تعالى بإنظار العباد إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة سريعاً[١] ﴿وإنَّ الذين أُورثوا الكتاب من بعدهم﴾ أي وإن بقيَّة أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله ﷺ من بعد أسلافهم السابقين ﴿لفي شكٍ منه مريب﴾ أي لفي شك من التوراة والإنجيل ، موقع لهم في أشد الحيرة والريبة ، لأنهم ليسوا على يقين من أمر دينهم وكتابهم ، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم ،بلا دليل ولا برهان قال البيضاوي : لا يعلمون كتابهم كما هو ولا يؤمنون به حق الإيمان ، فهم في شك مقلق[٢] ﴿فلذلك فادعُ واستقِم كما أُمرتَ﴾ أي فلأجل ذلك التفرق الذي حدث لأهل الكتاب ، أمرناك يا محمد أن تدعو الناس إلى دين الحنيفية السمحة ، الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك ، فادع يا محمد إليه والزم النهج القويم مع الاستقامة كما أمرك ربك ﴿ولا تتَّبع أهواءهُم﴾ أي ولا تتبع أهواء المشركين الباطلة فيما يدعونك إليه من ترك دعوة التوحيد ﴿وقل آمنتُ بما أنزل اللهُ من كتاب﴾ أي صدَّقت بكل كتابٍ أنزله الله تعالى قال الرازي : يعني الإيمان بجميع الكتب السماوية ، لأن أهل الكتاب المتفرقين في دينهم آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض[٣] ﴿وأُمرتُ لأعدلَ بينكم﴾ أي وأمرني ربي بأن أعدل بينكم في الحكم قال ابن جزي : يعني العدل في الأحكام إذا تخاصموا إليه[٤] ﴿اللهُ ربُّنا وربُّكم﴾ أي الله خالقنا جميعاً ومتولي أمورنا فيجب أن نفرده بالعبادة ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالُكم﴾ أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم ، من خير أو شرٍّ ، لا نستفيد من حسناتكم ولا نتضرر من سيئاتكم قال ابن كثير : هذا تبرؤٌ منهم أي نحن برآء منكم كقوله تعالى ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريءٌ مما تعملون﴾[٥] ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ أي لا جدال ولا مناظرة بيننا وبينكم ، فإن الحقَّ قد ظهر وبَانَ كالشمس في رابعة النهار ، وأنتم تعاندون وتكابرون ﴿الله يجمع بيننا وإليه المصيرُ﴾ أي الله يجمع بيننا يوم القيامة لفصل القضاء ، وإليه المرجع والمآب فيجازي كل أحدٍ بعمله من خير وشر قال الصاوي : والغرضُ أن الحقَّ قد ظهر ، والحجج قد قامت ، فلم يبق إلا العناد ، وبعد العناد لا حجة ولا جدل ، والله يفصل بين الخلائق يوم المعاد ، ويجازي كلاً بعمله[٦] ﴿والذين يُحاجُّون في الله﴾ أي يخاصمون في دينه لصدِّ الناس عن الإيمان ﴿من بعد ما استُجيب له﴾ أي من بعد ما استجاب الناسُ له ودخلوا في دينه ﴿حجتُهم داحضةٌ عند

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٢ . (٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٣ .
(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ١٥٨ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٩ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٣ . (٦) حاشية الصاوي ٤/ ٣٣ .

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

ربهم﴾ أي حجتهم باطلة لا ثبوت لها عند الله قال ابن عباس : نزلت في طائفةٍ من بني إسرائيل همَّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاجتهم بالباطل[1] ﴿وعليهم غضبٌ ولهم عذابٌ شديدٌ﴾ أي وعليهم غضب عظيم في الدنيا ، وعذابٌ شديد في الآخرة ﴿اللهُ الذي أنزل الكتاب بالحقِّ﴾ أي نزَّل القرآن وسائر الكتب الإلهية متلبساً بالصدق القاطع ، والحقِّ الساطع ، في أحكامه وتشريعاته وأخباره ﴿والميزان﴾ أي ونزَّل الميزان أي العدل والإنصاف قاله ابن عباس قال المفسرون : وسمي العدلُ ميزاناً لأن الميزان يحصل به العدل والإنصاف ، فهو من تسمية الشيء باسم السبب ﴿وما يُدريك لعلَّ الساعةَ قريبٌ﴾ أي وما ينبئك أيها المخاطب لعلَّ وقت الساعة قريب ؟ فإن الواجب على العاقل أن يحذر منها ، ويستعدَّ لها قال أبو حيان : ووجه اتصال الآية بما سبق أن الساعة يوم الحساب فكأنه قيل : أمركم الله بالعدل والتسوية قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم[2] ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾ أي يستعجل بالقيامة المشركون الذين لا يصدّقون بها فيقولون على سبيل الاستهزاء : متى تكون ؟ ﴿والذين آمنوا مشفقون منها﴾ أي والمؤمنون المصدّقون بها خائفون وجلون من قيامها ﴿ويعلمون أنها الحقُّ﴾ أي ويعلمون أنها كائنة وحاصلة لا محالة ﴿ألا إن الذين يمارون في الساعةِ لفي ضلال بعيد﴾ أي الذين يجادلون في أمر القيامة في ضلال بعيد عن الحق ، لإنكارهم عدل الله وحكمته .

* * *

قال الله تعالى : ﴿اللهُ لطيفٌ بعباده يرزق من يشاء . . إلى . . وما لكم من دون الله من وليٍ ولا نصير﴾

من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣١) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الساعة وما يلقاه عند قيامها المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار من الحساب والجزاء ، ذكر هنا أنه لطيف بالعباد لا يعاجل العقوبة للعصاة مع استحقاقهم للعذاب ، ثم ذكر مآل المتقين ، ومآل المجرمين في الآخرة ، دار العدل والجزاء .

اللغة : ﴿لطيف﴾ برٌّ رفيقٌ رحيم ﴿حرث الآخرة﴾ الحرثُ في الأصل : إلقاء البذور في الأرض ، ويطلق على الزرع الحاصل منه ، ثم استعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة ﴿الفصْل﴾ القضاء السابق ﴿يقترف﴾ يكتسب ﴿روضات﴾ جمع روضة وهو الموضع الكثير الأزهار والأشجار والثمار كالمتنزه وغيره ﴿يقترف﴾ يكتسب ﴿الغيث﴾ المطر سمي غيثاً لأنه يُغيث الخلق ﴿قنطوا﴾ يئسوا ﴿بثَّ﴾ فرَّق ونشر ﴿معجزين﴾ فائتين من عذاب الله بالهرب .

(١) البحر المحيط ٧/٥١٣ . (٢) نفس المرجع السابق ٧/٥١٣ .

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢١ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾

التفسير : ﴿الله لطيفٌ بعباده﴾ أي بارٌّ رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم ، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم قال مقاتل : لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم[١] ﴿يرزقُ من يشاءُ﴾ أي يوسِّع الرزق على من يشاء قال القرطبي : وفي تفضيل قوم بالمال حكمة ، ليحتاج البعضُ إلى البعض ، وهذا من لطفه بالعباد ، وأيضاً ليمتحن الغنيَّ بالفقير ، والفقير بالغني كقوله تعالى ﴿وجعلنا بعضكم لبعضٍ فتنة أتصبرون﴾[٢] ؟ ﴿وهو القويُّ﴾ أي القادر على كل ما يشاء ﴿العزيز﴾ أي الغالبُ الذي لا يُغالب ولا يُدافع ثم لما بيَّن كونه لطيفاً بالعباد ، كثير الإحسان إليهم ، أشار إلى أن الإنسان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة فقال ﴿مَنْ كان يريدُ حرثَ الآخرة نزدْ له في حرثه﴾ أي من كان يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها ، نزدْ له في أجره وثوابه ، بمضاعفة حسناته ﴿ومنْ كان يريدُ حرثَ الدنيا نُؤْته منها﴾ أي ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط ، نعطه بعض ما يطلبه من المتاع العاجل ممَّا قُدر له ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾ أي وليس له في الآخرة حظٌ من الثواب والنعيم قال الزمخشري : سمَّى ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثاً على سبيل المجاز ، وفرَّق بينهما بأن من عمل للآخرة ضوعفت حسناته ، ومن عمل للدنيا أُعطي شيئاً منها لا ما يريده ويبتغيه[٣] وقال في التسهيل : حرثُ الآخرة عبارة عن العمل لها ، وكذلك حرث الدنيا ، وهو مستعارٌ من حرث الأرض ، لأن الحرَّاث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل[٤] ، ثم أخذ ينكر على الكفار عبادتهم لغير الله ، مع أنه الخالقَ المتفضل على العباد فقال ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي ألهؤلاء الكفار شركاء من الشياطين أو آلهة من الأوثان ، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله ؟ قال شيخ زاده : وإسنادُ الشرع إلى الأوثان وهي جمادات إسنادٌ مجازي ، من إسناد الفعل إلى السبب ، وسمَّاه ديناً للمشاكلة والتهكم[٥] ﴿ولولا كلمةُ الفَصل لقُضيَ بينهم﴾ أي لولا أنَّ الله حكم وقضى في سابق أزله أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة لحكم بين الكفار والمؤمنين ، بتعجيل العقوبة للظالم ، وإثابة المؤمن ﴿وإن الظالمين لهم عذابٌ أليم﴾ أي وإن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان لهم عذابٌ موجع مؤلم ﴿ترى الظَّالمين مُشْفقين ممَّا كسبُوا﴾ أي ترى أيها المخاطب الكافرين يوم القيامة

(١) البحر المحيط ٧/ ٥١٤ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ١٨ .
(٣) تفسير الكشاف ٤/ ١٧١ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧١ . (٥) حاشية البيضاوي ٣/ ٢٧٥ .

عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ

خائفين خوفاً شديداً من جزاء السيئات التي ارتكبوها في الدنيا ﴿وهو واقعٌ بهم﴾ أي والجزاء عليها نازلٌ بهم يوم القيامة لا محالة ، سواءً خافوا أو لم يخافوا ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات﴾ أي والمؤمنون الصالحون في رياض الجنة يتمتعون ، في أطيب بقاعها ، وفي أعلى منازلها ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾ أي لهم في الجنات ما يشتهونه من أنواع اللذائذ والنعيم والثواب العظيم عند رب كريم قال ابن كثير : فأين هذا من هذا ؟ أين من هو في الذل والهوان ، ممن هو في روضات الجنان ؟ فيما يشاء من مآكل ومشارب وملاذ[1] ؟ ولهذا قال تعالى ﴿ذلك هو الفضْلُ الكبير﴾ أي ذلك النعيم والجزاء هو الفوز الأكبر الذي لا يوازيه شيء قال القرطبي : أي الفضل الذي لا يوصف ، ولا تهتدي العقول إلى حقيقة صفته ، لأن الحقَّ جل وعلا إذا قال « كبير » فمن ذا الذي يقدر قدره[2] ؟ ﴿ذلك الذي يُبشِّر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي ذلك الإكرام والإنعام هو الذي يبشر الله به عباده المؤمنين المتقين ، ليتعجلوا السرور ويزدادوا شوقاً إلى لقائه ﴿قلْ لا أسألكم عليه أجراً إلا المودَّة في القُربى﴾ أي قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئاً من الأجر والمال ، إلاَّ أن تحفظوا حقَّ القربى ولا تؤذوني حتى أبلغ رسالة ربي قال ابن كثير : أي لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مالاً ، وإنما أطلب أن تذروني حتى أبلغ رسالات ربي ، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة[3] قال ابن عباس : يقول إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة ، وتودوني في نفسي لقرابتي منكم ﴿ومن يقْترفْ حسنةً نزدْ له فيها حُسناً﴾ أي ومن يكتسب ويفعل طاعةً من الطاعات نضاعف له ثوابها ﴿إنَّ اللهَ غفورٌ شكور﴾ أي غفور للذنوب شاكر لإحسان المحسن ، لا يضيع عنده عمل العامل ، ولهذا يغفر الكثير من السيئات ، ويكثِّر القليل من الحسنات ﴿أم يقولون افترى على اللهِ كذباً﴾ ؟ أي بل أيقول كفار قريش إن محمداً اختلق الكذب على الله بنسبة القرآن إليه ؟ قال أبو حيان : وهذا استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين على هذه المقالة أي مثله لا يُنسب إلى الكذب على الله مع اعترافكم له قبل بالصدق والأمانة[4] ﴿فإنْ يشإ اللهُ يختمْ على قلبك﴾ أي لو افتريت على الله الكذب كما يزعم هؤلاء المجرمون لختم على قلبك فأنساك هذا القرآن ، وسلبه من صدرك ، ولكنك لم تفتر على الله كذباً ولهذا أيَّدك وسدَّدك قال ابن كثير : وهذه كقوله جل وعلا ﴿ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾ وقال أبو السعود : والآيةُ استشهادٌ على بطلان ما قالوا ببيان أنه عليه السلام

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٥ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٠ .
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٥ . (٤) البحر المحيط ٧/ ٥١٦ .

﴿ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾

لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعاً ، بالختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه ، ولم ينطق بحرفٍ من حروفه[١] ﴿ويَمْحُ اللهُ الباطلَ﴾ أي يزيل الله الباطل بالكلية ﴿ويُحِقُّ الحقَّ بكلماتِه﴾ أي ويثبتُ اللهُ الحق ويوضّحه بكلامه المنزل ، وقضائه المبرم وقال ابن كثير : بكلماته أي بحججه وبراهينه ﴿إنه عليمٌ بذات الصدور﴾ أي عالم بما في القلوب ، يعلم ما تكنه الضمائر ، وتنطوي عليه السرائر وقال القرطبي : والمراد أنك لو حدثت نفسك أن تفتري الكذب لعلمه الله وطبع على قلبك[٢] ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ هذا امتنانٌ من الرحمن على العباد أي هو جل وعلا بفضله وكرمه يتقبل التوبة من عباده ، إذا أقلعوا عن المعاصي وأنابوا بصدقٍ وإخلاص نيّة ﴿ويعفواْ عن السيئات﴾ أي يصفح عن الذنوب صغيرها وكبيرها لمن يشاء ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ أي يعلم جميع ما تصنعون من خيرٍ أو شر ﴿ويستجيبُ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ﴾ أي ويستجيب الله دعاء المؤمنين الصالحين قال الرازي : أي ويستجيبُ اللهُ للمؤمنين إلاَّ أنه حذف اللام كما حذف في قوله ﴿وإذا كالوهم﴾ أي كالوا لهم[٣] ﴿ويزيدُهم من فضله﴾ أي ويزيدهم من جوده وكرمه فوق ما سألوا واستحقوا لأنه الجواد الكريم ، البرُّ الرحيم ﴿والكافرون لهم عذابٌ شديد﴾ أي وأما الكافرون بالله فلهم العذاب الموجع الأليم في دار الجحيم ﴿ولو بسط اللهُ الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ أي ولو وسَّع الله الرزق على عباده لطغوا وبغَوْا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام ، لأن الغنى يوجب الطغيان قال ابن كثير : أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق ، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً ، وقال قتادة : خير العيش ما لا يُلهيك ولا يُطغيك[٤] ﴿ولكنْ يُنزِّل بقدَرٍ ما يشاء﴾ أي ولكنه تعالى يُنـزّل أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة كما جاء في الحديث القدسي (إنَّ من عبادي من لا يصلُحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه)[٥] ﴿إنه بعباده خبيرٌ بصير﴾ أي عالم بأحوالهم وما يصلحهم ، فيعطي ويمنع ، ويبسط ويقبض ، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ﴿وهو الذي ينـزّل الغيث من بعد ما قنطوا﴾ تعدادٌ لنعمه على العباد أي هو تعالى الذي ينزّل المطر ، الذي يغيثهم

(١) تفسير ابي السعود ٥/ ٣٤ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٥ . (٣) التفسير الكبير ٢٧/ ١٦٩ .
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٧ . (٥) كذا ذكره ابن كثير عن أنس مرفوعاً .

ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

من الجدب ، من بعد ما يئسوا من نزوله ﴿وينشُر رحْمته﴾ أي ويبسط خيراته وبركاته على العباد ﴿وهو الوليُّ الحميد﴾ أي وهو الوليُّ الذي يتولى عبادَه ، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء ﴿ومن آياته خلقُ السموٰاتِ والأرض﴾ أي ومن دلائل قدرته ، وعجائب حكمته ، الدالة على وحدانيته ، خلقُ السموات والأرض بهذا الشكل البديع ﴿وما بثَّ فيهما من دابة﴾ أي وما نشر وفرَّق في السموات والأرض من مخلوقات قال ابن كثير : وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن ، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم[1] وقال مجاهد : هم الناسُ والملائكة ﴿وهو على جمعهم إذا يشاءُ قدير﴾ أي وهو تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء ، في أيِّ وقتٍ شاء ﴿وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبتْ أيديكم﴾ أي وما أصابكم أيها الناس مصيبة من المصائب في النفس أو المال فإنما هي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها قال الجلال : وعبَّر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تُزاول بها[2] ﴿ويعفواْ عن كثير﴾ أي ويصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها ، ولو آخذكم بكل ما كسبتم لهلكتم وفي الحديث (لا يصيب ابن آدم خدش عود ، أو عثرة قدمٍ ، ولا اختلاجُ عرقٍ إلا بذنبٍ ، وما يعفو عنه أكثر)[3] ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أي ولستم أيها المشركون فائتين من عذاب الله ، ولا هاربين من قضائه ، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب ﴿وما لكُم من دُون اللّهِ من وليٍ ولا نصير﴾ أي وليس لكم غير الله وليٌّ يتولى أموركم ويتعهد مصالحكم ، ولا نصير يدفع عنكم عذابه وانتقامه .

فَائِدَة : المصائب التي تُصيب الناس لتكفير السيئات ، وأما الأنبياء فإنما هي لرفع الدرجات لأنهم معصومون عن الذنوب والآثام .

تَنْبِيه : قال بعض العلماء : لا يستبعد أن يكون في الكواكب السيارة ، والعوالم العلوية مخلوقات ـ غير الملائكة ـ تشبه مخلوقات الأرض ، وأن يكون فيها حيوانات تشبه الحيوانات التي على أرضنا كما تدل الدلائل الفلكية على وجود حياةٍ في المريخ ، واستدلوا بهذه الآية ﴿ومن آياته خلق السموٰات والأرض وما بثَّ فيهما من دابة﴾ الآية ، أقول : يحتمل أن يوجد في هذا الفضاء الواسع ، مخلوقات حيَّة غير الإنسان ، أما الإنسان فإننا نقطع بأنه لا يوجد إلا فوق سطح هذا الكوكب الأرضي لقوله تعالى : ﴿قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ، ومنها تُخرجون﴾ .

(١) مختصر ابن كثير ٣/٢٧٨ . (٢) تفسير الجلالين ٤/٣٨ . (٣) كذا في البحر المحيط ٧/٥١٨ وذكر ابن كثير أن الحديث من رواية ابن أبي حاتم عن الحسن مرسلاً .

قال الله تعالى : ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . . . إلى . . ألا إلى الله تصير الأمور﴾ . من آية (٣٢) إلى آية (٥٣) نهاية السورة .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى بعض الدلائل على وحدانيته في خلق السموات والأرض ، وما بثَّ فيهما من مخلوقات لا تُحصى، أتبعه بذكر آية أخرى تدل على وجود الإِله القادر الحكيم ، وهي السفن الضخمة التي تشبه الجبال تسير بقدرته تعالى فوق سطح البحر ، محمَّلة بالأقوات والأرزاق ، وختم السورة الكريمة ببيان إثبات الوحي وصدق القرآن .

اللغَة : ﴿الجوار﴾ جمع جارية وهي السفينة سميت جارية لأنها تجري في الماء ﴿كالأعلام﴾ جمع علم وهو الجبل العظيم الشاهق قالت الخنساء :

وإنَّ صخْراً لتأْتـمُّ الهُـداةُ به ... كأنَّهُ علـمٌ في رأسـهِ نارُ

﴿رواكد﴾ ثوابت ساكنة لا تسير ، من ركدَ الماء إذا سكن ووقف عن الجري ﴿محيص﴾ مهرب ومخلص من العذاب ﴿يوبقهن﴾ يهلكهنَّ يقال : أوبقه أي أهلكه ﴿الفواحش﴾ جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحه كالزنى والقتل والشرك وغيرها ﴿نكير﴾ منكرٌ يُنكِر ما ينزل بكم من العذاب ﴿عقيماً﴾ لا تلد .

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

التفسِير : ﴿ومن آياتهِ الجوارِ في البحرِ كالأعلام﴾ أي ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة ، وسلطانه العظيم ، السفنُ الجارية في البحر كأنها الجبال من عظمها وضخامتها ﴿إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره﴾ أي لو شاء تعالى لأسكن الرياح وأوقفها فتبقى السفن سواكن وثوابت على ظهر البحر لا تجري ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لكُل صبَّارٍ شكور﴾ أي إن في تسييرها لعبراً وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء ، شاكرٍ في الرخاء قال الصاوي : أي كثير الصبر على البلايا ، عظيم الشكر على العطايا[١] وقال أبو حيان : وإنما ذكر السفن الجارية في البحر ، لما فيها من عظيم دلائل القدرة ، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف ، يغوص فيه الثقيل ، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة ومع ذلك جعل الله تعالى في الماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص ، ثم جعل الرياح سبباً لسيرها فإذا أراد أن ترسو أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها[٢] ﴿أو يوبقهنَّ بما كسبوا﴾ أي وإن يشأ يجعل الرياح عواصف فيغرق هذه السفن وأهلها بسبب ما اقترفوا من جرائم ﴿ويعفُ عن كثير﴾ أي ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك ﴿ويعلمَ الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾ أي وليعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل ، أنه لا ملجأ لهم ولا مهرب من عذاب الله

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٣٩ . (٢) البحر المحيط ٧/ ٥٢٠ .

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قال القرطبي : أي ليعلم الكفار إذا توسطوا البحر وغشيتهم الرياح من كل مكان أنه لا ملجأ لهم سوى الله ،ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم فيخلصون له العبادة[١] **﴿فما أوتيتم من شيءٍ فمتاعُ الحياة الدنيا﴾** أي فما أعطيتم أيها الناس من شيء من نعيم الدنيا وزهرتها الفانية ، فإنما هو نعيم زائل ، تتمتعون به مدة حياتكم ثم يزول **﴿وما عند الله خيرٌ وأبقى﴾** أي وما عند الله من الثواب والنعيم ، خيرٌ من الدنيا وما فيها ، لأنَّ نعيم الآخرة دائم مستمر ، فلا تُقدِّموا الفاني على الباقي **﴿للذين آمنوا﴾** أي للذين صدَّقوا الله ورسوله وصبروا على ترك الملاذ في الدنيا **﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾** أي واعتمدوا على الله وحده في جميع أمورهم **﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم﴾** أي وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين **﴿والفواحش﴾** قال ابن عباس : يعني الزنى **﴿وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾** أي إذا غضبوا على أحدٍ ممَّن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا **قال الصاوي** : من مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب ، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مخل بالمروءة ، ولا واجباً كما إذا انتهكت حرماتُ الله فالواجب حينئذٍ الغضب لا الحلم ، وعليه قول الشافعي « من استُغضب ولم يغضب فهو حمار » وقال الشاعر : « وحلمُ الفتى في غير موضعه جهل »[٢] **﴿والذين استجابوا لربهم﴾** أي أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة **قال البيضاوي** : نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا[٣] **﴿وأقاموا الصلاة﴾** أي أدوها بشروطها وآدابها ، وحافظوا عليها في أوقاتها **﴿وأمرهم شورى بينهم﴾** أي يتشاورون في الأمور ولا يعجلون ، ولا يُبرمون أمراً من مهمات الدنيا والدين إلا بعد المشورة **﴿ومما رزقناهم يُنفقون﴾** أي وينفقون مما أعطاهم الله في سبيل الله بالإحسان إلى خلق الله **﴿والذين إذا أصابهُمُ البغْيُ هم ينتصِرون﴾** أي ينتقمون ممن بغى عليهم ، ولا يستسلمون لظلم المعتدي **قال إبراهيم النخعي** : كانوا يكرهون أن يُذلّوا أنفسهم فتجترىء عليهم الفساق[٤] **قال أبو السعود** : وهو وصفٌ لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل ، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فإن كلاً في موضعه محمود[٥] **﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها﴾** أي وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة **قال الإمام الفخر** : لما قال تعالى **﴿والذين إذا أصابهم البغيُ هم ينتصرون﴾** أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل دون زيادة ، وإنما سمّى

(١) القرطبي ١٦/ ٣٣ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٤٠ . (٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٥ .
(٤) القرطبي ١٦/ ٣٩ . (٥) أبو السعود ٥/ ٣٦ .

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

ذلك سيئة لأنها تسوء من تنزل به [١] **﴿فمن عفا وأصلح فأجرُهُ على اللّه﴾** أي فمن عفا عن الظالم ، وأصلح بينه وبين عدوه ، فإن الله يثيبه على ذلك الأجر الجزيل قال ابن كثير : شرع تعالى العدل وهو القصاص ، وندب إلى الفضل وهو العفو ، فمن عفا فإن الله لا يضيع له ذلك كما جاء في الحديث (وما زاد اللهُ تعالى عبداً بعفوٍ إلا عزاً) [٢] **﴿إنه لا يحبُّ الظالمين﴾** أي إنه جل وعلا يبغض البادئين بالظلم ، والمعتدين في الانتقام **﴿ولَمَن انتصر بعد ظلمه﴾** أي انتصر ممن ظلمه دون عدوان **﴿فأولئك ما عليهم من سبيل﴾** أي فليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذة ، لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار **﴿إنما السبيلُ على الذين يظلمون الناس﴾** أي إنما العقوبة والمؤاخذة على المعتدين الذين يظلمون الناس بعدوانهم **﴿ويَبْغُون في الأرض بغير الحقّ﴾** أي ويتكبرون في الأرض تجبراً وفساداً ، بالمعاصي والاعتداء على الناس في النفوس والأموال **﴿أولئك لهم عذابٌ أليم﴾** أي أولئك الظالمون الباغون لهم عذاب مؤلم موجع بسبب ظلمهم وبغيهم **﴿ولمنْ صبر وغفرَ إنَّ ذلك لمن عزمِ الأمور﴾** أي ولمن صبر على الأذى ، وترك الانتصار لوجه الله تعالى ، فإن ذلك الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وأكد عليها قال الصاوي : كرَّر الصبر اهتماماً به وترغيباً فيه وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة [٣] **﴿ومن يُضلل اللهُ فما له من وليٍّ من بعده﴾** أي ومن يضلله اللهُ فليس له ناصر ولا هادٍ يهديه إلى الحق **﴿وترى الظالمين لمّا رأوا العذاب﴾** أي وترى الكافرين حين شاهدوا عذاب جهنم **﴿يقولون هل إلى مردٍّ من سبيل﴾** أي يطلبون الرجوع إلى الدنيا لهول ما يشاهدون من العذاب ويقولون : هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا ؟ قال القرطبي : يطلبون أن يُردُّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله عز وجل فلا يجابون [٤] **﴿وتراهم يُعرضون عليها﴾** أي وتراهم أيها المخاطب يُعرضون على النار **﴿خاشعين من الذُلّ﴾** أي متضائلين صاغرين مما يلحقهم من الذل والهوان **﴿ينظُرون من طرْف خفيّ﴾** أي يسارقون النظر خوفاً منها وفزعاً كما ينظر من قُدِّم ليقتل بالسيف ، فإنه لا يقدر أن ينظر إليه بملء عينه قال ابن عباس : ينظرون بطرفٍ ذابلٍ ذليل وقال قتادة والسدي : يُسارقون النظر من شدة الخوف [٥] **﴿وقال**

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨٠ . (٢) حاشية الصاوي ٤/ ٤١ .
(٣) تفسير القرطبي ١٦/ ٤٥ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/ ٤٦ . (٥) التفسير الكبير ٢٧/ ١٧٨ .

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

الذين آمنوا إنَّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يومَ القيامة﴾ أي يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار : إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء ، فإنهم خسروا أنفسهم وأهليهم بخلودهم في نار جهنم **﴿ألا إنَّ الظالمين في عذابٍ مقيم﴾** أي ألا إنهم في عذاب دائم لا ينقطع **﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾** أي وما كان لهم من أعوان ونصراء ينصرونهم من عذاب الله كما كانوا يرجون ذلك في الدنيا **﴿ومن يُضلل اللهُ فما لهُ من سبيل﴾** أي ومن يضلله اللهُ فليس له طريق يصل به إلى الحق في الدنيا ، وإلى الجنة في الآخرة ، لأنه قد سُدَّت عليه طريق النجاة قال ابن كثير : من يضلله الله فليس له خلاص[1] **﴿استجيبوا لربكم﴾** أي استجيبوا أيها الناسُ إلى ما دعاكم إليه ربكم من الإيمان والطاعة **﴿من قبل أنْ يأتي يومٌ لا مردَّ له من اللّه﴾** أي من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب الذي لا يقدر أحدٌ على ردِّه ، لأنه ليس له دافع ولا مانع **﴿ما لكم من ملجأٍ يومئذٍ﴾** أي ليس لكم مفر تلتجئون إليه **﴿وما لكم من نكير﴾** أي وليس لكم منكِرٌ يُنكِر ما ينزل بكم من العذاب وقال أبو السعود : أي ما لكم إنكار لما اقترفتموه لأنه مدوَّن في صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحكم[2] **﴿فإن أعرضوا﴾** أي فإن أعرض المشركون عن الإيمان ولم يقبلوا هداية الرحمن **﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾** أي فما أرسلناك يا محمداً رقيباً على أعمالهم ولا محاسباً لهم **﴿إنْ عليك إلا البلاغُ﴾** أي ما عليك إلاَّ أن تبلغهم رسالة ربك وقد فعلت قال أبو حيان : والآية تسلية للرسول ﷺ وتأنيسٌ له ، وإزالةٌ لهمِّه بهم[3] ، ثم أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان الكفران لنعم الله فقال **﴿وإنَّا إذا أذقنا الإنسان منا رحمةً فرح بها﴾** المرادُ بالإنسان الجنس بدليل قوله **﴿وإن تصبهم﴾** والمعنى إنا إذا أكرمنا الإنسان بنعمةٍ من النعم من صحة وغنى وأمنٍ وغيرها بطر وتكبَّر **﴿وإن تصبهم سيئةٌ بما قدَّمت أيديهم فإنَّ الإنسان كفور﴾** أي وإن أصاب الناسَ جدبٌ ونقمة ، وبلاءٌ وشدة ، بسبب ما اقترفوه من آثام فإن الإنسان مبالغٌ في الجحود والكفران ، ينسى النعمة ويذكر البلية قال الصاوي : والحكمةُ في تصدير النعمة بـ «إذا» والبلاء بـ «إنْ» هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء ، لأن رحمة الله تغلب غضبه[4] وقال الإمام الفخر : نِعَمُ اللهِ في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سمَّاها ذوقاً ، فبيَّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير في الدنيا

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ١٨٢ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٣٧ . (٣) البحر المحيط ٧/ ٥٢٥ . (٤) حاشية الصاوي ٤/ ٤١ .

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ * وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ويقع في العجب والكبر ، ويظن أنه فاز بكل المُنى ، وذلك لجهله بحال الدنيا وبحال الآخرة[1] ﴿للّهِ مُلكُ السمٰواتِ والأرضِ يخلق ما يشاء﴾ أي هو تعالى المالك للكون كلِّه ، علويه وسفليِّه ، والمتصرف فيه بالخلق والإيجاد ، كيفما شاء ، والمقصودُ من الآية أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه ، وأن يعلم أن الكل ملك الله وحده ، وبيده مقاليد التصرف في السموات والأرض ، يعطي ويمنع ، لا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه ﴿يهب لمن يشاء إناثاً﴾ أي يخص من شاء من عباده بالإناث دون البنين ﴿ويهب لمن يشاء الذكور﴾ أي ويخص من شاء بالذكور دون الإناث ﴿أو يزوجهم ذُكراناً وإناثاً﴾ أي يجعلهم إن شاء من النوعين فيجمع للإنسان بين البنين والبنات ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ أي ويجعل بعض الرجال عقيماً فلا يولد له ، وبعض النساء عقيماً فلا تلد قال البيضاوي : والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة ، على مقتضى المشيئة ، فيهب لبعضٍ إمّا صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى ، أو الصنفين جمعاً ، ويُعقم آخرين[2] ، والمراد من الآية بيان نفاذ قدرته تعالى في الكائنات كيف يشاء ، ولهذا قال ﴿إنه عليمٌ قدير﴾ أي مبالغ في العلم والقدرة ، يفعل ما فيه مصلحة وحكمة قال ابن كثير : جعل تعالى الناس أربعة أقسام : منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه النوعين الذكور والإناث ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد ، فسبحان العليم القدير[3] . . ثم ذكر تعالى الوحي وأقسامه وأنواعه فقال : ﴿وما كان لبشرٍ أنْ يُكلِّمَهُ اللّهُ إلا وحياً﴾ أي وما صحَّ لأحدٍ من البشر أياً كان أن يكلمه الله إلا بطريق الوحي في المنام أو بالإلهام ، لأن رؤيا الأنبياء حقٌ كما وقع للخليل إبراهيم عليه السلام ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ ﴿أو من وراء حجاب﴾ أي أو يكلمه من وراء حجاب كما كلَّم موسى عليه السلام ﴿أو يرسلَ رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ أي أو يرسل ملكاً فيبلغ الوحي إلى الرسول بأمره تعالى ما يشاء تبليغه كما نزل جبريل بالوحي على الأنبياء قال في التسهيل : بيَّن تعالى في الآية أن كلامه لعباده على ثلاثة أوجه : أحدها الوحي بطريق الإلهام أو المنام ، والآخر أن يُسمعه كلامه من وراء حجاب ، والثالث : الوحي بواسطة الملك ، وهذا خاص بالأنبياء ، والثاني خاص بموسى وبمحمد إذ كلمه الله ليلة الإسراء ، وأما الأول فيكون للأنبياء والأولياء[4] وقال الصاوي : وقد يقع الإلهام لغير الأنبياء كالأولياء ، غير أن إلهام الأولياء قد يختلط به الشيطان لأنهم غير معصومين ، بخلاف الأنبياء فإلهامهم محفوظ منه[5] ﴿إنه عليٌّ

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ١٨٤ . (٢) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٦ .
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨٣ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٤ .
(٥) حاشية الصاوي ٤/ ٤٢ .

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

حكيم﴾ أي إنه تعالى متعالٍ عن صفات المخلوقين ، حكيم في أفعاله وصنعه ، تجري أفعاله على موجب الحكمة **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾** أي وكما أوحينا إلى غيرك من الرسل أوحيناإليك يا محمد هذا القرآن ، وسمَّاه روحاً لأن فيه حياة النفوس من موت الجهل ، وكان مالك بن دينار يقول : يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض[1] **﴿ما كنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمان﴾** أي ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحي ما هو القرآن ، ولا كنت تعرف شرائع الإيمان ومعالمه على وجه التفصيل **﴿ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾** أي ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً وضياءً نهدي به عبادنا المتقين **﴿وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾** أي وإنك يا محمد لترشد إلى دين قيمٍ مستقيم هو الإسلام **﴿صراطِ اللّهِ الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض﴾** أي هذا الدين الذي لا اعوجاج فيه هو دينُ الله الذي له كل ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً **﴿ألاَ إلى الله تصير الأمور﴾** أي ألا إلى الله وحده ترجع الأمور فيفصل فيها بين العباد بحكمه العادل وقضائه المبرم .

البَــلاَغَــة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المجاز المرسل **﴿لتنذر أم القرى﴾** أي لتنذر أهل مكة لأن الإنذار لأهل القرية لا لها . وفي الآية احتباك حيث حذف من كل نظيرما أثبته في الآخر وتقديره : لتنذر أم القرى العذاب ، وتنذر الناس يوم الجمع .

٢ ـ توالي المؤكدات مع صيغة المبالغة **﴿ألا إن الله هو الغفور الرحيم﴾** وهي ألا ، وإن ، وضمير الفصل .

٣ ـ الطباق بين **﴿الجنة . . والسعير﴾** وبين **﴿يبسط . . ويقدر﴾** وبين **﴿ذكراناً . . وإناثاً﴾** .

٤ ـ طباق السلب **﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها﴾** .

٥ ـ الاستعارة **﴿من كان يريد حرث الآخرة﴾** الآية شبه العمل للآخرة بالزارع يزرع الزرع ليجني منه الثمرةوالحب،بطريق الاستعارة التمثيلية وهي من لطائف الاستعارة .

٦ ـ المقابلة **﴿ويمحو الله الباطل ، ويحق الحقَّ بكلماته﴾** .

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٥٥ .

٧ ـ عطف العام على الخاص ﴿ينزِّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته﴾ فالغيث خاص والرحمة عام .

٨ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ أي كالجبال في الضخامة والعظم .

٩ ـ التقسيم ﴿يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوِّجهم ذكراناً وإناثاً﴾ .

١٠ ـ جناس الاشتقاق ﴿وما أصابكم من مصيبة﴾ .

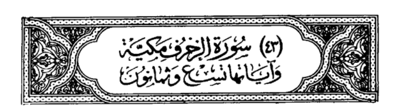
١١ ـ صيغة المبالغة ﴿لكل صبَّار شكور﴾ أي عظيم الصبر ، كبير الشكر .

١٢ ـ المشاكلة ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها﴾ سميت الثانية سيئة لمشابهتها للأولى في الصورة .

١٣ ـ توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن العظيم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الشورى »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الزخرف مكية ، وقد تناولت أسس العقيدة الإسلامية وأصول الإيمان ، « الإيمان بالوحدانية ، وبالرسالة ، وبالبعث والجزاء » كشأن سائر السور المكية .

* عرضت السورة لإثبات مصدر الوحي ، وصدق هذا القرآن ، الذي أنزله الله على النبيّ الأمي بأفصح لسانٍ ، وأنصع بيان ، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي .

* ثم عرضت إلى دلائل قدرته تعالى ووحدانيته ، منبثةً في هذا الكون الفسيح ، في السماء والأرض ، والجبال والوهاد ، والبحار والأنهار ، والماء الهاطل من السماء ، والسفن التي تسير فوق سطح الماء ، والأنعام التي سخرها الله للبشر ليأكلوا لحومها ويركبوا ظهورها .

* ثم تناولت السورة ما كان عليه المجتمع الجاهلي من الخرافات والوثنيات فقد كانوا يكرهون البنات ، ومع ذلك اختاروا لله البناتِ سفهاً وجهلاً ، فزعموا أن الملائكة بنات الله ، فجاءت الآيات لتصحيح تلك الانحرافات ، وردِّ النفوس إلى الفطرة ، وإلى الحقائق الأولى القطعية .

* وتحدثت السورة بإيجاز عن دعوة الخليل إبراهيم عليه السلام ، الذي يزعم المشركون أنهم من سلالته وعلى ملته ، فكذبتهم في تلك الدعوى ، وبينت الآيات أن إبراهيم أول من تبرأ من الأوثان .

* ثم انتقلت إلى تفنيد تلك الشبهة السقيمة ، التي أثارها المشركون حول رسالة محمد عليه السلام ، فقد اقترحوا أن تتنزَّل الرسالة على رجلٍ من أهل الجاه والثراء ، لا على يتيم فقير كمحمد ﷺ فجاءت الآيات لتقرير أن الجاه والثراء ليسا ميزاناً لكرامة الإنسان واستحقاقه المناصب الرفيعة ، وأن الدنيا من الحقارة والمهانة بحيث لو شاء الله لأغدقها على الكافرين ومنعها عباده المؤمنين .

* وذكرت السورة قصة « موسى وفرعون » لتأكيد تلك الحقيقة السابقة ، فها هو فرعون الجبار يعتز ويفخر على موسى بملكه وسلطانه ، كما يعتز الجاهلون من رؤساء قريش على النبي ﷺ ثم تكون نتيجته الغرق والدمار .

* وختمت السورة الكريمة ببيان بعض أحوال الآخرة وشدائدها وأهوالها ، وبيان حال الأشقياء

المجرمين ، وهم يتقلَّبون في غمرات الجحيم .

التسمية : سميت « سورة الزخرف » لما فيها من التمثيل الرائع ـ لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع ـ بالزخرف اللامع، الذي ينخدع به الكثيرون ، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار ، وينالها الأخيار والأشرار ، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين ، فالدنيا دار الفناء ، والآخرة دار البقاء .

* * *

قال الله تعالى : ﴿حمٓ * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . . إلى . . فانظر كيف كان عاقبةُ المكذبين﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٥) .

اللغة : ﴿صفحاً﴾ إعراضاً يقال : ضربت عنه صفحاً إذا أعرضت عنه وتركته ﴿بطشاً﴾ قوة وانتقاماً ، وبطش به أخذه بشدة وعنف ﴿مهداً﴾ فراشاً وبساطاً ﴿أنشرنا﴾ أحيينا ، والنشور ، الإحياء بعد الموت ﴿تستووا﴾ تستقروا وتركبوا ﴿مقرنين﴾ مطيقين ﴿كظيم﴾ مملوء غماً وغيظاً ﴿يخرصون﴾ يكذبون ﴿أمة﴾ دين وطريقة ﴿مترفوها﴾ المترف : المتنعم المنغمس في الشهوات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾

التفسير : ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[1] ﴿والكتاب المبين﴾ قسمٌ أقسم الله به أي أُقْسمُ بالقرآن البيِّن الواضح الجلي ، المظهر طريق الهدى من طريق الضلال ، المبيِّن للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ هذا هو المقسم عليه أي أنزلناه بلغة العرب ، مشتملاً على كمال الفصاحة والبلاغة ، بأسلوب محكم ، وبيانٍ معجز ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تفهموا أحكامه ، وتتدبروا معانيه ، وتعقلوا أن أسلوبه الحكيم خارج عن طوق البشر قال البيضاوي : أقسم تعالى بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً ، وهو من البدائع البلاغية لتناسب القسم والمُقسم عليه ، تنبيهاً على أنه لا شيء أعلا منه فيقسم به ، وهذا يدل على شرف القرآن وعزته بأبلغ وجهٍ وأدقه[2] ﴿وإنه في أمِّ الكتاب لدينا﴾ أي وإنه في اللوح المحفوظ عندنا ﴿لعليٌّ حكيم﴾ أي رفيع الشأن عظيم القدر ، ذو حكمةٍ بالغةٍ ومكانةٍ فائقة قال ابن كثير : بيَّن شرف القرآن في الملأ الأعلى ، ليشرِّفه ويعظِّمه أهل الأرض أي وإن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا ذو مكانةٍ عظيمة ، وشرف وفضل[3] ﴿أفنضربُ عنكم الذكرَ صفحاً﴾ الاستفهام إنكاري أي أنترك تذكيركم إعراضاً عنكم ، ونعتبركم

(١) انظر تفصيل القول في أول سورة البقرة . (٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٢٨٨ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨٤ .

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾

كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن ؟ ﴿أنْ كنتم قوماً مسرفين﴾ أي لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان ؟ لا ، بل نذكّركم ونعظكم به إلى أن ترجعوا إلى طريق الحق قال قتادة : لو أن هذا القرآن رُفع حين ردَّه الأوائل لهلكوا ، ولكنَّ الله برحمته كرَّره عليهم ، ودعاهم إليه عشرين سنة[1] قال ابن كثير : وقول قتادة لطيف المعنى جداً وحاصله أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير ، وإلى الذكر الحكيم ، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه ، بل يأمر به ليهتدي به من قدَّر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته[2] ﴿وكم أرْسَلنَا من نبيٍّ في الأولين﴾ ؟ تسلية للنبي عليه السلام أي ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم الأولين ؟ ﴿وما يأتيهم من نبيٍّ إلا كانوا به يستهزئون﴾ أي ولم يكن يأتيهم نبي إلا سخروا منه واستهزءوا به قال الصاوي : وهذا تسلية له ﷺ والمعنى تسلَّ يا محمد ولا تحزن فإنه وقع للرسل قبلك ما وقع لك[3] ﴿فأهلَكْنَا أشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً﴾ أي فأهلكنا قوماً كانوا أشد قوة من كفار مكة وأعتى منهم وأطغى ﴿ومَضَى مَثَلُ الأوَّلين﴾ أي وسبق في القرآن أحاديثُ إهلاكهم ، ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم من المكذبين قال الإمام الفخر : إن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم ، فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك فقد ضربنا لهم مثَلَهم[4] ﴿ولَئِنْ سألْتَهُمْ من خلَقَ السمواتِ والأرض﴾ أي ولئن سألتَ يا محمد هؤلاء المشركين من خلق السمواتِ والأرض بهذا الشكل البديع ﴿ليقولُنَّ خلقهنَّ العزيزُ العليم﴾ أي ليقولُنَّ خلقهنَّ اللهُ وحده ، العزيزُ في ملكه ، العليمُ بخلقه قال القرطبي : أقروا له بالخلق والإيجاد ، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم وسفهاً[5] . . ثم بيَّن تعالى لهم صفاته الجليلة ، الدالة على كمال القدرة والحكمة فقال ﴿الَّذي جعَلَ لكُمُ الأرضَ مَهْداً﴾ أي بسط الأرض وجعلها كالفراش لكم ،تستقرون عليها وتقومون وتنامون ﴿وجعَلَ لكُمُ فيها سُبُلاً﴾ أي وجعل لكم فيها طُرُقاً تسلكونها في أسفاركم ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي لكي تهتدوا إلى قدرة الخالق الحكيم ، مودع هذا النظام العجيب ﴿والذي نزَّل من السَّماءِ ماءً بِقَدرٍ﴾ أي نزَّل بقدرته الماء من السماء بمقدارٍ ووزنٍ معلوم ، بحسب الحاجة والكفاية قال البيضاوي : أي بمقدار ينفع ولا يضر[6] ﴿فأنشرنا به بلدةً ميْتاً﴾ أي فأحيينا به أرضاً ميتةً مقفرةً من النبات ﴿كذلكَ تُخْرجُون﴾ أي كذلك نخرجكم من قبوركم كما نُخرج النبات من الأرض الميتة ﴿والذي خلَقَ الأزواج كلَّها﴾ أي خلق جميع الأصناف من الحيوان والنبات وغير

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ١٩٥ . (٢) المختصر ٣/ ٢٨٥ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٤٤ .
(٤) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ١٩٥ . (٥) تفسير القرطبي ١٦/ ٦٤ . (٦) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٧ .

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

ذلك قال ابن عباس : « الأزواج » الأصناف والأنواع كلها كالحلو والحامض ، والأبيض والأسود ، والذكر والأنثى[١] ﴿وجعل لكم من الفُلْك والأنعام ما تركبون﴾ أي وسخَّر لكم من السفن في البحر ، والإبل في البر ما تركبونه في أسفاركم قال ابن كثير : أي ذلَّلها وسخَّرها ويسَّرها لكم ، لتأكلوا لحومها وتركبوا ظهورها[٢] ﴿لتستووا على ظهوره﴾ أي لتستقروا على ظهور هذا المركوب ، سفينةً كانت أو جملاً ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ أي وتتذكروا نعمة ربكم الجليلة عليكم حين تستقرون فوقها فتشكروه بقلوبكم ﴿وتقولوا سُبْحان الذي سخَّر لنا هذا﴾ أي وتقولوا بألسنتكم عند ركوبكم : سبحان الله الذي ذلَّل ويسَّر لنا ركوب هذا المركوب ﴿وما كنّا له مقرنين﴾ أي وما كنا قادرين ولا مطيقين لركوبه لولا تسخيره تعالى لنا ﴿وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون﴾ أي وإنا إلى ربنا لراجعون ، وصائرون إليه بعد الموت قال في حاشية البيضاوي : وليس المراد من ذكر النعمة تصورها وإخطارها في البال ، بل المراد تذكر أنها نعمة حاصلةٌ بتدبير القادر العليم الحكيم ، مستدعية لطاعته وشكره ، فإن من تفكر في أنَّ ما يركبه الإنسان من الفُلْك والأنعام ، أكثر قوةً وأكبر جثة من راكبه ، ومع ذلك كان مسخراً لراكبه يتمكن من تصريفه إلى أيِّ جانب شاء ، وتفكر أيضاً في خلق البحر والريح وفي كونهما مسخرين للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال ، استغرق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه ، وكمال قدرته وحكمته ، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجباً من عظمة الله ﴿سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾[٣] . . ولما ذكر تعالى اعتراف المشركين بأن خالق السموات والأرض هو رب العالمين ، ذكر بعده ما يدل على سفههم وجهلهم في عبادة غير الله فقال ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ أي جعل المشركون لله ولداً حيث قالوا : الملائكةُ بنات الله ﴿إنَّ الإنسان لكفورٌ مبين﴾ أي إن القائل لهذا لمبالغ في الكفر ، عظيم الجحود والطغيان قال البيضاوي : أي ظاهر الكفران لأن نسبة الولد إليه تعالى من فرط الجهل به والتحقير لشأنه[٤] ﴿أم اتخذ مما يَخْلُقُ بنات وأصفْاكم بالبنين﴾ إنكارٌ وتعجبٌ من حالهم أي هل اتخذ تعالى لنفسه البنات ، وخصكم واختار لكم البنين ؟ قال ابن كثير : وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار[٥] ، ثم ذكر تعالى تمام الإنكار فقال ﴿وإذا بُشِّرَ أحدُهم بما ضَربَ للرحمن مثلاً﴾ أي وإذا بُشِّر أحد المشركين بالأنثى التي جعلها مثلاً لله بنسبة البنات له ﴿ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ أي صار

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٤/ ٧٧ . (٢) مختصر ابن كثير للصابوني ٣/ ٢٨٥ .
(٣) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٢٩١ . (٤) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٧ . (٥) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨٦ .

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾

وجهه كأنه أسود من الكآبة والحزن ،وهوممتلىءٌغيظاًوغماًمن سوء ما بُشّر به قال الإمام الفخر : والمقصودُ من الآية التنبيهُ على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم ، فإن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحدّ كيف يجوز للعاقل إثباتُه لله تعالى ؟ وقد روي عن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة[١] ﴿أوَمـنْ يُنشأُ في الحِلْيـةِ﴾ أي أيجعلون للّهِ من يُربَّـى في الزينة وينشأ ويكبر عليها وهنَّ الإناث ؟ ﴿وهـو فـي الخِصام غيـرُ مُبيـن﴾ أي ومن هو في الجدال غيرُ مظهرٍ لحجته لضعف رأيه ؟ أوَمَـنْ يكونُ هكذا يُنْسب إلى جناب الله العظيم ؟ قال في التسهيل : والمقصد الرد على الذين قالوا الملائكةُ بنات الله ، كأنه قال : أجعلتم للّهِ من ينشأ في الحلية ؟ يعني يكبر وينبت في استعمالها ، وذلك صفةُ النقص ، ثم أتبعها بصفة نقصٍ أخرى فقال ﴿وهـو في الخصام غيـرُ مبين﴾ يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبيّـن حجتها لنقص عقلها ، وقلّمـا تجد امرأة إلا تفسد الكلام ، وتخلط المعاني ، فكيف يُنسب لله من يتصف بهذه النقائص[٢] ؟ وقال ابن كثير : المرأة ناقصة في الصورة والمعنـى ، فيكمـل نقص ظاهرهـا وصورتها بلبس الحلي ليجبر ما فيها من نقص ، كما قال بعض الشعراء :

ومـا الحليُ إلا زينـةٌ من نقيصـةٍ يتمِّـم مـن حُسْـنٍ إذا الحُسْنُ قصَّرا

وأما نقصُ معناها فإنها ضعيفةٌ عاجزةٌ عن الانتصار ، كما قال بعض العرب وقد بُشِّـر ببنت « ما هي بنعم الولد ، نصرُها بكاءٌ ، وبرُّها سرقة »[٣] ﴿وجعلـوا الملائكـةَ الذيـن هـم عباد الرحمن إنـاثاً﴾ كفـرٌ آخـر تضمنه قولهم الشنيع أي واعتقد كفار العرب بأن الملائكة الذين هم أكمل العباد وأكرمهم على الله ـ إناثٌ وحكموا عليهم بذلك ﴿أشَهِدوا خلْقَهـم﴾ أي أحضروا وقت خلق الله لهم حتى عرفوا أنهم إناث ؟ وهذا تجهيلٌ وتهكمٌ بهم ﴿ستُكْتَـبُ شهادتُهـم ويُسْألـون﴾ أي سنأمر الملائكة بكتابة شهادتهم الكاذبة في ديوان أعمالهم ويُسألون عنها يوم القيامة ، وهو وعيدٌ شديدٌ مع التهديد قال المفسرون : حكى تعالى عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة : **الأول** : أنهم نسبوا إلى الله الولد ، **الثاني** : أنهم نسبوا إليه البناتِ دون البنين ، **الثالث** : أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان ، فكذّبهم القرآن الكريم في تلك الأقوال ، ثم زادوا ضلالاً وبهتاناً فزعمـوا أنَّ ذلك برضى اللـه ﴿وقـالـوا لو شاء الـرحمـن ما عبدناهـم﴾ أي قالوا على سبيل السخرية والاستهزاء : لو شاء اللهُ ما عبدنا هؤلاء الملائكة ولا الأصنام ، ولمّـا كانت عبادتنا واقعة بمشيئته فهو راضٍ بها قال القرطبي : وهذا منهم كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل ، فكل شيءٍ بإرادة الله ، والمشيئةُ غير الرضى ، ولا يصح الاحتجاج بالمشيئة ، فإنهم لو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أنَّ الله أراد منهم ذلك[٤] ، وقد كذبهم الله بقوله ﴿ما لهـم بذلـكَ من علـمٍ﴾ أي ما لهم بذلك

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٠١ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٦ .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٧ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/ ٧٣ .

إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

القول حجة ولا برهان ﴿إن هم إلاّ يخرصون﴾ أي ما هم إلا يكذبون ويتقوّلون على الله كذباً وزوراً ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مُسْتمسكون﴾ ردٌّ آخر عليهم أي أم أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً من قبل القرآن فهم بذلك الكتاب متمسكون يعملون بتوجيهاته ؟ قال الإمام الفخر : والمعنى : هل وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزَّل قبل القرآن حتى يعوِّلوا عليهويتمسكوابه[١] ؟ ﴿بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمةٍ﴾ بل للإضراب وهو الانتقال من كلام إلى آخر أي لم يأتوا بحجةٍ عقلية أو نقلية على ما زعموا بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة قال أبو السعود : والأمةُ : الدينُ والطريقةُ سميت أمةً لأنها تؤم وتقصد[٢] ﴿وإنّا على آثارهم مُهْتدون﴾ أي ونحن ماشون على طريقتهم مهتدون بآثارهم ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قريةٍ من نذير﴾ أي وكما تبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة ولا برهان كذلك فعل من قبلهم من المكذبين ، فما بعثنا قبلك رسولاً في أمةٍ من الأمم ﴿إلا قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مقتدون﴾ أي إلا قال المتنعمون فيها الذين أبطرتهم النعمة ، وأعمتهم الشهواتُ والملاهي عن تحمل المشاق في طلب الحق : إنا وجدنا أسلافنا على ملةٍ ودين ، وإنا مقتدون بهم في طريقتهم قال البيضاوي : والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ ودلالةٌ على أن التقليد في نحو هذا ضلالٌ قديم ، وأسلافُهم لم يكن لهم سندٌ منظور يُعتَدُّ به ، وإنما خصَّص المترفين بالذكر للإشعار بأن التنعم وحبُّ البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد الأعمى[٣] ، وذكر هنا ﴿مقتدون﴾ وهناك ﴿مهتدون﴾ تفنناً لأن معناهما واحد ﴿قالَ أولَوْ جِئْتُكمْ بأهدى ممَّا وجدتم عليه آباءكم﴾ ؟ أي قال كل نبيٍّ لقومه حين أنذرهم عذاب الله : أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم بدينٍ أهدى وأرشد مما كانوا عليه ؟ ﴿قالوا إنا بما أُرسلتم به كافرون﴾ أي قالوا إنا كافرون بكل ما أُرسلتم به من التوحيد والإيمان والبعث والنشور ﴿فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي فانتقمنا من الأمم المكذبة بأنواع العذاب فانظر كيف صار حالهم ومآلهم ! !

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براءٌ ممَّا تعبدون . . إلى . . من دون الرحمن آلهة يُعبدون﴾ من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٤٥)

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٠٦ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٢ . (٣) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٨ .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

المنَاسَبَة : لما حكى عن المشركين تقليدهم **الأعمى للآباء** ، ذكر هنا إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام ، الذي يفتخر به العرب وينتسبون إليه ، وتبرءه من قومه ومن عبادة الأوثان ، للمقارنة بين الهدى والضلال ، وبين منطق العقل السديد ، ومنطق الهوى والتقليد .

اللغَة : ﴿براءٌ﴾ مصدر بمعنى بريء أي متبرىء يقال : تبرأتُ من الأمر أي تخليت عنه بالكلية ﴿عقبه﴾ ذريته ونسله قال ابن شهاب : العقب : الولدُ وولد الولد ﴿سُخرياً﴾ أي مسخراً في العمل مستخدماً فيه ﴿معارج﴾ مصاعد ومراقي جمع مِعْراج وهو ما يصعد عليه الإنسان كالدرج ونحوه ﴿يظهرون﴾ يرتقون ويصعدون ﴿زخرف﴾ زينة من ذهب وفضة وغيرهما ﴿يَعْشُ﴾ يُعرض وأصله من عشيَ البصرُ إذا ضعف قال الخليل : العشو هو النظر ببصر ضعيف .

التفسِير : ﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ وقومهِ إنني براءٌ مما تعبُدون﴾ أي واذكر يا محمد حين قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه المشركين إنني بريءٌ من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله ﴿إلاّ الذي فطرني فإنه سيهدين﴾ أي لكنْ ربي الذي خلقني وأنشأني من العدم فإنه يرشدني إلى الدين الحق ، ويهديني إلى طريق السعادة ﴿وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه﴾ أي وجعل إبراهيم هذه الكلمة ـ كلمة التوحيد ـ باقيةً في ذريته فلا يزال فيهم من يوحِّد الله ﴿لعلَّهم يرجعون﴾ أي رجاء أن يرجع إلى الإيمان من أشرك منهم قال مجاهد : « وجعلها كلمة » يعني « لا إله إلا الله » لا يزال في ذريته من يقولها إلى يوم الدين[1] ﴿بل متَّعتُ هؤلاء وآباءهُم﴾ أي بل متعتُ أهل مكة وآباءهم ـ وهم من عقب إبراهيم ـ بالإمداد في العمر والنعمة ، فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد ﴿حتى جاءهم الحقُ ورسولٌ مبين﴾ أي حتى جاءهم القرآن ورسولٌ ظاهر الرسالة ، مؤيدٌ بالمعجزات الباهرة من عند الله قال الإمام الفخر : وجه نظم الآية أنهم لما عوَّلوا على تقليد الآباء ، ولم يتفكروا في الحجة ، اغتروا بطول الإمهال وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق[2] ﴿ولما جاءهم الحقُ قالوا هذا سحرٌ﴾ أي ولمَّا جاءهم القرآن لينبههم من غفلتهم ، ويرشدهم إلى التوحيد ، ازدادوا عتواً وضلالاً فقالوا عن القرآن إنه سحر ﴿وإنّا به كافرون﴾ أي ونحن كافرون به ، لا نصدّق أنه كلام الله قال أبو السعود : سمَّوا القرآن سحراً وكفروا به واستحقروا الرسول عليه السلام ، فضمُّوا إلى كفرهم السابق

---

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٨٨ .
(٢) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٠٨ .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا

معاندة الحق والاستهانة به[١] ﴿**وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾ أي وقال المشركون : هلاَّ أُنزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير في مكة أو الطائف ! ! قال المفسرون : يعنون « الوليد بن المغيرة » في مكة أو « عُروة بن مسعود الثقفي » في الطائف . . استبعدت قريش نزول القرآن على محمد وهو فقير يتيم ، واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء ، ظناً منهم أن العظيم هو الذي يكون له مال وجاه ، وفاتهم أن العظيم هو الذي يكون عند الله تعالى عظيماً ، وهم يعتبرون مقياس العظمة : الجاه والمال ، وهذا رأي الجاهلين في كل زمانٍ ومكان ، أما مقياسُ العظمة الحقيقية عند الله تعالى وعند العقلاء ، فإنما هو عظمة النفس ، وسُمُوُّ الروح ، ومَنْ أعظمُ نفساً وأسمى روحاً من محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام ! ! ولهذا ردَّ تبارك وتعالى عليهم بقوله ﴿**أهم يقسمون رحمة ربك**﴾ ؟ أي أهم يمنحون النبوة ويخصُّون بها من شاءوا من العباد ، حتى يقترحوا أن تكون لفلان الغني ، أو فلانٍ الكبير من الناس ؟ ﴿**نحنُ قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا**﴾ أي نحن بحكمتنا جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً ، وفاوتنا بينهم في الأموال والأرزاق ، وإذا كان أمر المعيشة ـ وهو تافه حقير ـ لم نتركه لهم بل تولينا قسمته بأنفسنا ، فكيف نترك أمر النبوة ـ وهو عظيم وخطير ـ لأهوائهم ومشتهياتهم ! ! قال في التسهيل : كما قسمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية ، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الحقيرة الفانية ، فأولى وأحرى ألا نُهمل الحظوظ الشريفة الباقية[٢] ﴿**ورفعنا بعضَهم فوق بعضٍ درجات**﴾ أي فاضلنا بين الخلق في الرزق والعيش ، وجعلناهم مراتب : هذا غني ، وهذا فقير ، وهذا متوسط الحال ﴿**ليتخذ بعضُهم بعضاً سُخْرِياً**﴾ أي ليكون كلٌ منهم مسخراً للآخر ، ويخدم بعضهم بعضاً ، لينتظم أمر الحياة قال الصاوي : إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق ، لينتفع بعضهم ببعض ، ولو كانوا سواءً في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً ، فيفضي إلى خراب العالم وفساد نظامه[٣] وقال أبو حيان : وقوله تعالى ﴿**سُخرياً**﴾ بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام ، لا من السخرية بمعنى الهزء ، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعضٍ ، ويصلوا إلى منافعهم ، ولو تولَّى كل واحدٍ جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك ، وضاع وهلك ، وفي قوله ﴿**نحن قسمنا**﴾ تزهيدٌ في الإكباب على طلب الدنيا ، وعونٌ على التوكل على الله[٤] ، وقال قتادة : تلقى ضعيف القوة ، قليل الحيلة ، عييَّ اللسان وهو موسَّع عليه في الرزق ، وتلقى شديد الحيلة ، بسيط اللسان وهو مقتَّر عليه في الرزق ، وقال الشافعي :

ومن الدليل على القضاء وكونِهِ ... بؤسُ اللبيب وطيبُ عيشِ الأحمقِ[٥]

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٣ (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٨ .
(٣) حاشية الصاوي ٤/ ٤٨ . (٤) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٣ . (٥) البحر المحيط ٨/ ١٣ .

وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾

﴿ورحمةُ ربِّك خيرٌ مما يجمعون﴾ أي وإنعامه تعالى عليك بالنبوة خيرٌ مما يجمع الناسُ من حطام الدنيا الفاني ، ثم بيَّن تعالى حقارة الدنيا ودناءة قدرها عند الله فقال ﴿ولولا أنْ يكونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدةً لجعلنَا لمنْ يكفُر بالرحمنِ لبيوتِهم سُقُفاً من فضَّةٍ﴾ أي ولولا أن يرغب الناسُ في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق ، ويصيروا أمةً واحدة في الكفر ،لخصصنا هذه الدنيا بالكفار ، وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش ، سقفها من الفضة الخالصة ﴿ومعارج عليها يظهرون﴾ أي وجعلنا لهم مصاعدَ وسلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون ﴿ولبيوتهم أبواباً وسُرُراً﴾ أي ولبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة ، زيادةً في الرفاهية والنعيم ﴿عليها يتكئون﴾ أي على تلك الأسرَّة الفضيَّة يتكئون ويجلسون ﴿وزخرفاً﴾ أي وجعلنا لهم زينةً من ستور ونمارق ونقوش وقال ابن عباس : ﴿زخرفاً﴾ ذهباً أي جعلنا لهم سقفاً وأبواباً وسرراً من فضة وذهب[1] ﴿وإنْ كلُّ ذلك لمَّا متاعُ الحياة الدنيا﴾ أي وما كل ذلك النعيم العاجل الذي نعطيه للكفار ، إلاّ شيء يُتمتع به في الحياة الدنيا الزائلة الحقيرة ﴿والآخرة عندَ ربِّك للمتقين﴾ أي والجنةُ وما فيها من أنواع الملاذ والنعم التي يقصر عنها البيان ، هي خاصة بالمتقين لا يشاركهم فيها أحد قال المفسرون : والآياتُ سِيقتْ لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها ، وأنها من الهوان بحيث لولا الفتنة لخصَّ بها الكافرين ، فجعل بيوت الكفرة ودرجها وسقوفها من ذهب وفضة ، وأعطى الكافر كل ذلك النعيم في الدنيا لعدم حظه في الآخرة ، ولكنه تعالى رحيم بالعباد فلذلك أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم ، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم وفي الحديث (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها جرعة ماء)[2] قال الزمخشري : فإن قلت : فحين لم يوسّع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم ، من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلاَّ وسَّع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ قلتُ التوسعةُ عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليها من دخول الناس في الإسلام لأجل الدنيا وذلك من دين المنافقين ، فكانت الحكمة فيما دبَّر ، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء ، وغلَّب الفقر على الغنى[3] ﴿ومنْ يَعْشُ عن ذكر الرحمن﴾ أي ومن يعرض ويتعام ويتغافل عن القرآن وعبادة الرحمن ﴿نُقيِّضْ له شيطاناً﴾ أي نهيء ونيسِّر له شيطاناً لا ينفك عن الوسوسة له والإغواء كقوله تعالى ﴿ألم تر أنَّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهم أزّاً﴾ ﴿فهو له قرين﴾ أي فهو ملازم ومصاحب له لا يفارقه ﴿وإنهم ليصدونهم

(١) القرطبي ١٦/٨٧ . (٢) أخرجه الترمذي وقال : حسنٌ صحيح . (٣) تفسير الكشاف ٤/١٩٧ .

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل﴾ أي وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الكفار الضالين عن طريق الهدى **﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾** أي ويحسب الكفار أنهم على نور وبصيرة وهدايةٍ من أمرهم **﴿حتى إذا جاءنا﴾** أي حتى إذا جاء الكافر مع قرينه وقد ربطا بسلسلةٍ واحدة **﴿قال يا ليتَ بيني وبينَك بُعْدَ المشرقين﴾** أي قال الكافر لقرينه : يا ليت بيني وبينك مثل بعد ما بين المشرق والمغرب قال الطبري : وهذا من باب التغليب كما يقال : القمران ، والعمران ، والأبوان ، فغلّب هَهنا المشرق على المغرب[١] **﴿فبئس القرين﴾** أي فبئس الصاحب أنت ،لأنك كنت سبباً في شقائي بتزينك الباطل لي قال أبو سعيد الخدري : إذا بُعث الكافر زُوّج بقرينه من الشياطين ، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار **﴿ولن ينفعكُم اليومَ إذْ ظلمتُم أنكم في العذابِ مشتركونَ﴾** أي ولن ينفعكم ويفيدكم اشتراككم في العذاب ، ولن يخفف ذلك عنكم شيئاً بسبب ظلمكم ، فإن لكل واحد نصيبه الأوفر منه قال في التسهيل : المراد أنه لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب ، ولا يجدون راحة التأسي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه[٢] لأن المصيبة إذا عمَّت هانت ، فدفع تعالى ذلك التوهم بأن اشتراكهم في العذاب ،لا يخفِّف عنهم البلاء **﴿أفأنتَ تُسمعُ الصُّمَّ أو تهدي العُمْيَ ومنْ كان في ضلالٍ مبين﴾** أي فأنت يا محمد تقدر أن تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالصُّم والعُمي ، ومن كان في ضلالٍ واضح ؟ ليس لك ذلك فلا يَضيقْ صدرك إن كفروا قال المفسرون : والآية تسلية للنبي ﷺ فقد كان يجتهد في دعائهم إلى الايمان ، ولا يزدادون إلاّ تعامياً عن الحق وطغياناً وضلالاً **﴿فإمَّا نذهبنَّ بك فإنا منهم منتقمون﴾** أي إن عجلنا وفاتك قبل الانتقام منهم ،فإنا سننتقم منهم بعد وفاتك **﴿أو نرينَّك الذي وعدناهم فإنَّا عليهم مقتدرون﴾** أي أو نرينَّك يا محمد العذاب الذي وعدناهم به في حياتك فإنا قادرون عليهم فهم في قبضتنا لا يفوتوننا قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر وقال ابن كثير : المعنى لا بدَّ أن ننتقم منهم ونعاقبهم في حياتك أو بعد وفاتك ، ولم يقبض الله تعالى رسوله حتى أقرَّ عينه من أعدائه ، وحكَّمه في نواصيهم[٣] **﴿فاستمسكْ بالذي أُوحي إليك﴾** أي فتمسكْ يا محمد بالقرآن الذي أوحيناه لك **﴿إنك على صراطٍ مستقيم﴾** أي فإنك على الحق الواضح والطريق المستقيم ،الموصل الى جنات النعيم **﴿وإنه لذكرٌ لك ولقومك وسوف تُسألون﴾** أي وإن هذا القرآن لشرفٌ عظيم لك ولقومك من قريش ، إذ أنزل بلغتهم وعلى رجلٍ منهم

(١) تفسير الطبري . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٩ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٩٠ .

﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

وسوف تسألون عن شكر هذه النعمة قال في التسهيل : والذكرُ هنا بمعنى الشرف ، وقومُ النبي ﷺ هم قريشٌ وسائر العرب ، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة ، ويكفيك أن فتحوا مشارق الدنيا ومغاربها وصارت فيهم الخلافة والملك[1] ، وهذا القرآن شرفٌ لكل من تبعه ، وهذه الآية نظير قوله تعالى ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ ؟ ﴿واسألْ مَنْ أرسلْنا من قبلِك من رسلنا﴾ هذا على سبيل الفرض ، وفي الكلام محذوف أي إن كنت يا محمد شاكاً في أمر التوحيد فسلْ من سبقك من الرسل ﴿أجعلنا من دون الرحمن آلهةً يُعبدون﴾ ؟ أي هل هناك أحدٌ من الرسل دعا لعبادة غير الله ؟ والآية كقوله تعالى ﴿فإن كنتَ في شكٍ ممّا أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾ قال أبو السعود : والمراد بالآية الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد ، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه حتى يُكذَّب ويُعادى[2] وقال أبو حيان : ويظهر أن الخطاب للسامع ، والسؤال هنا مجاز عن النظر في أديان الأنبياء ، هل جاءت عبادة الأوثان في ملةٍ من مللهم ؟ وهذا كما يساءل الشعراء الديار والأطلال ، ومنه قولهم : سل الأرض من شقَّ أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فإنها إن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً ، وهذا كله من باب المجاز[3] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه.. إلى. هذا صراط مستقيم﴾ من آية (٤٦) إلى نهاية آية (٦٤) .

المناسبة : لما طعنت قريش على الرسول ﷺ في أمر النبوة ، بسبب أنه فقيرٌ عديم المال والجاه ، واختاروا أن يتنزَّل القرآن على رجلٍ كثير المال عظيم الجاه ، ذكر تعالى قصة « موسى مع فرعون » ليشير إلى أن منطق العناد والطغيان واحد ، فقد سبقهم فرعون إلى التجبر بماله وسلطانه ، ورفضَ قبول دعوة الحق بحجة أنه أكثر مالاً وجاهاً من موسى ، فردت الآيات الكريمة هذه الشبهة السقيمة بالحجة والبرهان .

اللغة : ﴿ينكثون﴾ نكث العهد : نقضه ﴿مهين﴾ حقير لا قدر له ولا مكانة ﴿آسفونا﴾ أغضبونا وغاظونا ﴿سلفاً﴾ قُدْوة ﴿يصِدُّون﴾ بكسر الصاد بمعنى يضجّون ويصيحون ، وبضمها بمعنى الإعراض ومنع الناس عن الإيمان قال الجوهري : صدَّ يصُدُّ صديداً أي ضجَّ ، وقيل إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض ، وبالكسر من الضجيج[4] ، وقال الفراء : هما سواء ﴿تمترُنَّ﴾ الامتراء : الشك ، امترى في الأمر شكَّ فيه ، والمريةُ : الشكُّ .

سبب النزول : عن مجاهد قال : إن قريشاً قالت إن محمداً يريد أن نعبده كما عبد النصارى عيسى ابن

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٩ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٥ .
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٩ . (٤) انظر الصحاح ولسان العرب والقاموس المحيط .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾

مريم فأنزل الله ﴿ولما ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصِدّون﴾[1] .

التفسير : ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه﴾ أي واللهِ لقد أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه إلى فرعون وقومه الأقباط ﴿فقال إني رسولُ ربِّ العالمين﴾ أي فقال له موسى : إني رسول الله إليك ، أرسلني لأدعوك وقومك إلى عبادة الله وحده ﴿فلمَّا جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضْحكون﴾ أي فلما جاءهم بتلك الآيات الباهرة الدالة على رسالته ضحكوا سخريةً واستهزاءً به قال القرطبي : إنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم أن تلك الآياتِ سحرٌ ، وأنهم قادرون عليها[2] ، قال تعالى ﴿وما نريهم من آيةٍ إلاَّ هي أكبرُ من أختها﴾ أي وما نريهم آية من آيات العذاب كالطوفان ، والجراد ، والقُمَّل إلا وهي في غاية الكبر والظهور ، بحيث تكون أوضح من سابقتها قال الصاوي : والمعنى إلا وهي بالغة الغاية في الإعجاز ، بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها[3] ﴿وأخَذْناهُم بالعذَاب لعلَّهم يَرْجعون﴾ أي عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد ، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب ﴿وقالوا يا أيها الساحرُ ادعُ لنا ربَّك﴾ أي وقالوا لما عاينوا العذاب يا أيها الساحرُ ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا البلاء والعذاب ﴿بما عهد عندك﴾ أي بالعهد الذي أعطاك إياه من استجابة دعائك ﴿إننا لمهتدون﴾ أي لنؤمِنن بك إن كشف عنا العذاب بدعائك قال المفسرون : ليس قولهم ﴿يا أيها الساحر﴾ على سبيل الانتقاص ، وإنما هو تعظيم في زعمهم ، لأن السحر كان عِلم زمانهم ، ولم يكن مذموماً ، فنادوه بذلك على سبيل التعظيم قال ابن عباس : معناه يا أيها العالم ، وكان الساحر فيهم عظيماً يوقزونه ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ أي فلما رفعنا عنهم العذاب بدعوة موسى ، إذا هم ينقضون العهد ويصرون على الكفر والعصيان ﴿ونادى فرعونُ في قومه﴾ أي نادى فرعون رؤساء القبط وعظماءهم ، لما رأى الآيات الباهرة من موسى وخاف أن يؤمنوا ﴿قال يا قوم أليسَ لي مُلْكُ مصر وهذه الأنهارُ تجري من تحتي﴾ ؟ أي قال مفتخراً متبجحاً : أليست بلادُ مصرَ

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٠٢ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٩٧ .
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٥١ .

أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ * وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾

الواسعة الشاسعة ملكاً لي ؟ وهذه الخُلجان والأنهار المتفرعة من نهر النيل تجري من تحتي قصوري ؟ قال القرطبي : ومعظمها أربعة : نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تينس وكلها من النيل[1] وقال قتادة : كانت جنانها وأنهارها تجري من تحت قصره[2] ﴿أفلا تبصرون﴾ ؟ أي أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي ، وقلة موسى وذلته ؟ ﴿أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهين﴾ أي بل أنا خيرٌ من هذا الضعيف الحقير الذي لا عزَّ له ولا جاه ولا سلطان ، فهو يمتهن نفسه في حاجاته لحقارته وضعفه ؟ يعني بذلك موسى عليه السلام ﴿ولا يكادُ يُبين﴾ أي لا يكاد يفصح عن كلامه ، ويوضّح مقصوده ، فكيف يصلح للرسالة ؟ قال أبو السعود : قال فرعون ذلك افتراءً على موسى ، وتنقيصاً له عليه السلام في أعين الناس ، باعتبار ما كان في لسانه من عُقدة ، ولكنَّ الله أذهبها عنه بدعائه ﴿واحللْ عُقدةً من لساني يفقهوا قولي﴾[3] ﴿فلولا أُلقي عليه أسورةٌ من ذهب﴾ ؟ أي فهلاَّ ألقى الله إليه أسورةً من ذهب كرامةً له ودلالة على نبوَّته!! قال مجاهد : كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلاً رئيساً عليهم سوّروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهبٍ علامة لسيادته[4] ﴿أو جاء معهُ الملائكةُ مقترنين﴾ أي أو جاءت معه الملائكةُ يكتنفونه خدمةً له وشهادة بصدقه قال أبو حيان : لما وصف فرعون نفسه بالعزة والمُلك ، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام ، ووصفه بالضعف وقلة الأعوان ، اعترض فقال : إن كان صادقاً فهلاَّ ملَّكه ربُّه وسوَّره وجعل الملائكة أنصاره[5] ! ! ﴿فاستخفَّ قومه فأطاعُوه﴾ أي فاستخفَّ بعقول قومه واستجهلهم لخفة أحلامهم ، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة ﴿إنَّهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي إنما أجابوه لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾ أي فلما أغضبونا وغاظونا انتقمنا منهم بأشد أنواع العقاب ﴿فأغرقناهم أجمعين﴾ أي فأغرقنا فرعون وقومه في البحر أجمعين فلم نبق منهم أحداً قال المفسرون : اغتر فرعون بالعظمة والسلطان والأنهار التي تجري من تحته ، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به هو وقومه وذلك بالغرق بماء البحر ، وفيه إشارة إلى أن من تعزَّز بشيء أهلكه الله به ﴿فجعلناهم سَلَفاً ومثلاً للآخرين﴾ أي جعلنا قوم فرعون قُدوةً لمن بعدهم من الكفار في استحقاق العذاب والدمار ، ومثلاً يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك قال مجاهد : سلفاً لكفار قريش يتقدمونهم إلى النار ، وعظة وعبرةً لمن يأتي بعدهم[6] ﴿ولما ضُربَ ابنُ مريمَ مثلاً إذا قومُكَ منه

(١) نفس المرجع السابق ١٦/٩٨ . (٢) البحر المحيط ٨/٢٢ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/٤٦ .
(٤) تفسير القرطبي ١٦/ ١٠٠ . (٥) البحر المحيط ٨/٢٢ . (٦) تفسير القرطبي ١٦/١٠٢ .

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾﴾

يَصِدُّون﴾ أي ولمّـا ذُكر عيسى بن مريم في القرآن وضُرب المثلُ بالآلهة التي عُبدت من دون الله إذا مشركو قريش يضجون وترتفع أصواتُهم بالصياح قال المفسرون : لما قرأ رسول الله ﷺ : ﴿إنكـم وما تعبـدون من دون اللـهِ حصَبُ جهنـم﴾ قال ابن الزبعرى : أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال : قد خصمتك وربِّ الكعبة ؟ أليست النصارى يعبدون المسيح ، واليهود يعبدون عزيراً ؟ وبنو فلان يعبدون الملائكة ! ! فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، فسكت عليه الصلاة والسلام انتظاراً للوحي ، فظنوا أنه أُلزم الحجة فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم[١] فأنزل الله ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحُسْنى أولئك عنها مبعدون﴾ قال القرطبي : ولو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها ، لأنه تعالى قال ﴿إنكـم وما تعبـدون﴾ ولم يقل «ومـنْ تعبدون» وإنما أراد الأصنام ونحوهـا ممـا لا يعقـل ، ولـم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانـوا معبودين[٢] ﴿وقالـوا أآلهتنـا خيـرٌ أم هـو﴾ أي أآلهتنا خيرٌ أم عيسى ؟ فإن كان عيسى في النار فلتكنْ آلهتنا معه ﴿ما ضربـوه لـك إلاّ جـدلاً﴾ أي ما قالوا هذا القول لك إلاّ على وجه الجدل والمكابرة لا لطلب الحقّ ﴿بـل هـم قـومٌ خَصِمـون﴾ أي بل هم قوم شديدو الخصومة واللجاج بالباطل قال في التسهيل : أي ما ضربوا لك هذا المثال إلا على وجه الجدل ، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره ، سواء غلبه بحقٍ أو بباطل ، فإن ابن الزبعرى وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قولـه تعـالى ﴿حصبُ جهنـم﴾ ولكنهم أرادوا المغالطة فوصفهم الله بأنهم قوم خَصِمون[٣] ﴿إن هـو إلا عبـدٌ أنعمنـا عليه﴾ أي ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه بالنبوة وشرفناه بالرسالة ، وليس هو إلهاً ولا ابن إله كما زعم النصارى ﴿وجعلنـاه مثَـلاً لبني إسرائيل﴾ أي وجعلناه آيةً وعبرةً لبني إسرائيل ، يستدلون بها على قدرة الله تعالى ، حيث خُلق من أم بلا أب قال الرازي : أي صيرناه عبرةً عجيبة كالمثل السائر حيث خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم[٤] ﴿ولـو نشاءُ لجعلنـا منكـم ملائكـةً في الأرض يخلفـون﴾ أي لو أردنا لجعلنا بدلاً منكم ملائكةً يسكنون في الأرض يكونون خلفاً عنكم قال مجاهد : ملائكة يعمرون الأرض بدلاً منكم[٥] ﴿وإنـه لعِلْـمٌ للسَّاعـة﴾ أي وإن عيسى علامة على قرب الساعة قال ابن عباس وقتادة : إن خروج عيسى عليه السلام من أعلام الساعة لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، ﴿فـلا تَمْتـرنَّ بهـا﴾ أي فلا تشكُّوا في أمر الساعة فإنها آتية لا محالـة وفي الحـديث (يوشـك أن ينـزل فيكم عيسى بن مريم حكماً مقسطاً . .)[٦] الحديث ﴿واتَّبعـون هـذا صـراط مسـتقيـم﴾ أي وقـل لهـم يا محمـد : اتبعـوا هُداي

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٥٢ وانظر تفسير أبي السعود ٥/ ٤٧ . (٢) القرطبي ١٦/ ١٠٣ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٢ . (٤) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٢٢ . (٥) القرطبي ١٦/ ١٠٥ . (٦) هذا جزءٌ من حديث رواه البخاري .

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

وشرعي ، فإن هذا الذي أدعوكم إليه دينٌ قيّم وطريق مستقيم ﴿ولا يصدنّكم الشيطانُ إنه لكم عدوٌ مبين﴾ أي لا تغتروا بوساوس الشيطان ، واحذروا أن يصدكم عن اتباع الحق ، فإنه لكم عدوٌ ظاهر العداوة ، حيث أخرج أباكم من الجنة ، ونزع عنه لباس النور ﴿ولمَّا جاء عيسى بالبيناتِ قال قد جئتكم بالحكمة﴾ أي ولما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات ، قال قد جئتكم بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع ﴿ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ أي وجئتكم لأبين لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين قال ابن جزي : وإنما قال ﴿بعض الذي تختلفون فيه﴾ دون الكل ، لأن الأنبياء إنما يبيّنون أمور الدين لا أمور الدنيا[1] وقال الطبري : يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية[2] ﴿فاتقوا اللهَ وأطيعون﴾ أي فاتقوا اللهَ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وأطيعوا أمري فيما أبلغه إليكم من التكاليف ﴿إنَّ اللهَ هو ربّي وربُّكم فاعبدوه﴾ أي إن الله جل وعلا هو الربُّ المعبود لا ربٌّ سواه فأخلصوا له الطاعة والعبادة قال ابن كثير : أي أنا وأنتم عبيد له ، فقراء إليه ، مشتركون في عبادته وحده[3] ﴿هذا صراطٌ مستقيم﴾ أي هذا التوحيد والتعبد بالشرائع ، طريق مستقيم موصلٌ إلى جنات النعيم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿فاختلف الأحزابُ من بينهم فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يوم أليم . . إلى . . فسوف يعلمون﴾ من آية (٦٥) إلى آية (٨٩) نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى أمر عيسى ودعوته إلى الدين الحق ، أتبعه بذكر ضلال أهل الكتاب حيثُ تفرقوا شيعاً وأحزاباً في شأنه ، فقال بعضهم إنه إله ، وقال بعضهم إنه ابن الإله ، وقال آخرون إنه ثالث ثلاثة ، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة وأهوالها ، وختم السورة الكريمة ببيان صفات المعبود الحق ، الواحد الأحد جلَّ وعلا .

اللغة : ﴿الأخلاء﴾ جمع خليل وهو الصديق الحميم ﴿تُحبرون﴾ تُسرون وتفرحون ، والحبورُ : السرور والفرح ﴿أكواب﴾ جمع كوب وهو القدح الذي لا عروة له ﴿مبلسون﴾ آيسون من الرحمة ، وحزينون من شدة اليأس ﴿أبرموا﴾ أحكموا الشيء يقال : أبرم القوم أمرهم أحكموه ، والإبرام : الإحكام ﴿يؤفكون﴾ يُقلبون ويُصرفون ، أفكه أفكاً أي قلبه وصرفه عن الشيء .

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٢ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٩٥ قال ابن كثير : وهذا الذي قاله ابن جرير حسن جيد . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٩٥ .

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ۝٦٥ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٦٦ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١﴾

سَبَبُ النُّزول : عن مقاتل قال : مكر المشركون بالنبي ﷺ في دار الندوة ، وتآمروا على قتله حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم ، وهو أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله وتضعف المطالبة بدمه فنزلت : ﴿ أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون﴾[1] .

التفسِير : ﴿فاختلف الأحزابُ من بينهم﴾ أي اختلفت فرق النصارى في شأن عيسى وصاروا شيعاً وأحزاباً فيه قال ابن كثير : صاروا شيعاً فيه ، منهم من يُقرُّ بأنه عبدُ الله ورسولُه ـ وهو الحقُّ ـ ، ومنهم من يدّعي أنه ولد الله ، ومنهم من يقول إنه الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً[1] ﴿فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يومٍ أليم﴾ أي فهلاكٌ ودمارٌ لهؤلاء الكفرة الظالمين من عذاب يومٍ مؤلم وهو يوم القيامة ﴿هل ينْظُرون إلا الساعة أن تأتيهُم بغتة﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا إتيانَ الساعة ومجيئها فجأةً ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي وهم غافلون عنها مشتغلون بأمور الدنيا ، وحينئذٍ يندمون حيث لا ينفعهم الندم ، ثم ذكر تعالى أحوال القيامة فقال ﴿الأخلاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلاَّ المتقين﴾ أي الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداء إلاَّ من كانت صداقته ومحبته لله قال ابن كثير : كلُّ خلةٍ وصداقة لغير الله ، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه[2] قال ابن عباس : صارت كل خلةٍ عداوةً يوم القيامة إلا المتقين تشريفاً وتطييباً لقلوبهم فيقول : يا عباد المؤمنين الذين تحققتم في العبودية لرب العالمين ، لا خوفٌ عليكم في هذا اليوم العصيب ، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا ، ثم وضّحهم بقوله ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ أي هم الذين صدَّقوا بالقرآن ، واستسلموا لحكم الله وأمره ، وانقادوا لطاعته ﴿ادخلوا الجنة أنتُمْ وأزواجكُم تُحبرون﴾ أي يقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات ، تُنعَّمون فيها وتُسرُّون سروراً يظهر أثره على وجوهكم ﴿يُطاف عليهم بصحافٍ من ذهبٍ وأكواب﴾ أي يُطاف على أهل الجنة بأوانٍ من الذهب فيها الطعام ، وأقداحٍ من ذهب فيها الشراب قال المفسرون : آنية أهل الجنة التي يأكلون فيها الطعام ، والكئوس التي يشربون فيها الشراب كلُّها من ذهب وفضة كما قال تعالى ﴿ويُطاف عليهم بآنيةٍ من فضة وأكوابٍ كانت قواريرا﴾ وفي الحديث (لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها ، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة)[3] ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفسُ

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٥ . (٢) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة . (٣) الحديث من رواية الشيخين .

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾

وتلذُّ الأعينُ﴾ أي وفي الجنة كل ما تشتهيه النفوس من أنوع اللذائذ والمشتهيات ، وتُسرُّ به الأعين من فنون المناظر الجميلة ، والمشاهد اللطيفة ﴿وأنتم فيها خالدون﴾ أي وأنتم في الجنة باقون دائمون ، لا تخرجون منها أبداً قال أبو السعود : وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمال للسرور ، فإنَّ كل نعيمٍ زائلٍ موجبٌ لخوف الزوال[1] . . لمّا ذكر الجنة وأنها موضع الحبور ، ذكر ما فيها من النعم ، فذكر أولاً المطاعم ، ثم ذكر المشارب ،ثم بعد ذلك التفصيل ذكر بياناً كلياً بقوله ﴿وفيها ما تشتهيه الأنْفُسُ وتلذُّ الأعينُ﴾ ثم ذكر تمام النعمة بالخلود في دار النعيم ، وهذا حصرٌ لأنواع النعم ، لأنها إمّا مشتهاة في القلوب ، أو مستلذةٌ في العيون[2] ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أي وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أُعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا قال ابن كثير : أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله ، ولكنْ برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجاتُ يُنال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات[3] وفي الحديث (ما من أحدٍ إلاّ وله منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار ، الكافر يرث المؤمن منزله في النار ، والمؤمن يرثُ الكافر منزله في الجنة ، وذلك قوله تعالى ﴿وتلك الجنةُ التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾[4] ﴿لكم فيها فاكهةٌ كثيرةٌ منها تأكلون﴾ أي لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير ـ سوى الطعام والشراب ـ من هذه الفواكه تأكلون تفكهاً وتلذذاً قال المفسرون : يأكل أهل الجنة من بعض الثمار ، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام ، لا ترى فيها شجرةً تخلو عن ثمرها لحظة ، فهي مزينةٌ بالثمار أبداً ، لأن كل ما يؤكل يخلف بدله وفي الحديث (لا ينزع رجلٌ في الجنة من ثمرها إلا نبت مثلاها مكانها)[5] . . ولما ذكر حال السعداء الأبرار أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار فقال ﴿إنَّ المجرمينَ في عذاب جهنَّم خالدون﴾ أي إن الكافرين الراسخين في الإجرام في العذاب الشديد في جهنم دائمون فيها أبداً قال الصاوي : والمراد بالمجرمين الكفار لأنهم ذكروا في مقابلة المؤمنين[6] ﴿لا يُفتَّر عنهم﴾ أي لا يخفَّف عنهم العذاب لحظة ﴿وهم فيه مُبْلسون﴾ أي وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير ﴿وما ظلمناهم ولكنْ كانوا هم الظالمين﴾ أي وما ظلمناهم بعقابنا لهم ، ولكنْ كانوا هم الظالمين لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد ﴿ونادوا يا مالِك ليقض علينا ربُّك﴾ أي ونادى الكفار مالكاً خازن النار قائلين : ليمتْنا اللهُ حتى نستريح من العذاب قال ابن كثير : أي ليقبضْ أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه قال ابن عباس : فلم يجبهم إلا بعد ألف سنة[7]

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٩ . (٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣٠٤ .
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٩٦ . (٤) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم . (٥) تفسير أبي السعود ٥/ ٤٩ .
(٦) حاشية الصاوي ٤/ ٥٤ . (٧) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٩٦ .

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣)﴾

﴿قال إنكم ماكثون﴾ أي أجابهم إنكم مقيمون في العذاب أبداً ، لا خلاص لكم منه بموتٍ ولا بغيره **﴿لقد جئناكم بالحقِّ ولكنَّ أكثركم للحقِّ كارهون﴾** خطاب توبيخ وتقريع أي لقد جئناكم أيها الكفار بالحق الساطع المبين ، ولكنكم كنتم كارهين لدين الله مشمئزين منه لكونه مخالفاً لأهوائكم وشهواتكم **قال الرازي** : هذا كالعلة لما ذُكر والمرادُ نفرتهم عن محمد وعن القرآن ، وشدة بُغْضهم لقبول الدين الحق[1] **﴿أمْ أبْرموا أمراً فإنّا مُبْرمون﴾** الكلام عن كفار قريش أي أم أحكم هؤلاء المشركون أمراً في كيد محمد ﷺ فإنا محكمون أمرنا في نصرته وحمايته ، وإهلاكهم وتدميرهم **قال مقاتل** : نزلت في تدبيرهم المكر بالنبي ﷺ في دار الندوة[2] **﴿أم يحسبون أنا لا نسْمعُ سرَّهم ونجواهم﴾** أي أم يظنون أنَّا لا نسمع ما حدَّثوا به أنفسهم ، وما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي **قال في التسهيل** : السرُّ ما يحدث به الإِنسان نفسه أو غيره في خفية ، والنجوى ما تكلموا به بينهم[3] **﴿بلى ورُسُلنا لديهم يكتبون﴾** أي بلى إنا نسمع سرَّهم وعلانيتهم ، وملائكتنا الحفظة يكتبون عليهم أعمالهم،روي أنها نزلت في « الأخنس بن شُريق » و« الأسود بن عبد يغوث » اجتمعا فقال الأخنس : أترى الله يسمع سرَّنا ! ! فقال الآخر : يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا[4] **﴿قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : لو فُرض أنَّ لله ولداً لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد ، ولكنه جل وعلا منزَّه عن الزوجة والولد **قال القرطبي** : وهذا كما تقول لمن تناظره : إن ثبتَ ما قلتَبالدليل فأنا أول من يعتقده ، وهذا مبالغةٌ في الاستبعاد ، وترقيقٌ في الكلام[5] **وقال الطبري** : هو ملاطفةٌ في الخطاب **وقال البيضاوي** : ولا يلزم من هذا الكلام صحة وجود الولد وعبادته له ، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه ، وإنكاره للولد ليس للعناد والمراء ، بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به ، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا يصح[6] **﴿سبحان ربِّ السموات والأرض ربِّ العرش عمَّا يصفون﴾** أي تنزَّه وتقدَّس اللهُ العظيمُ الجليل ، ربُّ السمواتِ والأرضِ ، وربُّ العرشِ العظيم ، عمَّا يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه **﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾** أي اترك كفار مكة في جهلهم وضلالهم ، يخوضوا في باطلهم ويلعبوا بدنياهم **﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يُوعدون﴾** أي إلى ذلك اليوم الرهيب الذي وُعدوه ـ وهو يوم

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٢٧. (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ١١٨. (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٣ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٣ .
(٥) تفسير القرطبي ١٦/ ١١٩. (٦) هذا قول جيد وهو الصحيح في معنى الآية وقيل « إن » بمعنى « ما » أي ما كان للرحمن ولد وتم الكلام ثم ابتدأ فقال : ﴿فأنا أول العابدين﴾ ، وهذا قول ضعيف .

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

القيامة ـ فسوف يعلمون حينئذٍ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم ﴿وهو الذي في السماء إلهٌ وفي الأرض إلهٌ﴾ أي هو جل وعلا معبودٌ في السماء ومعبود في الأرض ، لأنه هو الإِله الحق ، المستحق للعبادة في السماء والأرض قال في التسهيل : أي هو الإِله لأهل الأرض وأهل السماء[1] وقال ابن كثير : أي هو إله من في السَّماء وإلهُ من في الأرض ، يعبده أهلها وكلُّهم خاضعون له أذلاء بين يديه[2] ﴿وهو الحكيم العليم﴾ أي هو الحكيم في تدبير خلقه ، العليمُ بمصالحهم ، وهذا كالدليل على وحدانيته تعالى ﴿وتباركَ الذي لهُ مُلْك السَّمٰواتِ والأرضِ وما بينهما﴾ أي تمجَّد وتعظَّم الله الذي له مُلك السمواتِ والأرض وما بينهما من المخلوقات ، من الإِنس والجن والملائكة ، فهو الخالق والمالك والمتصرف في الكائنات بلا ممانعةٍ ولا مدافعة ﴿وعنده عِلْمُ الساعةِ﴾ أي وعنده وحده علم زمان قيام الساعةَ ﴿وإليه تُرجعون﴾ أي وإليه لا إلى غيرهِ مرجع الخلائق للجزاء ، فيجازي كلاً بعمله ﴿ولا يملكُ الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ أي ولا يملك أحدٌ ممن يعبدونهم من دون الله أن يشفع عند الله لأحد ، لأنه لا شفاعة إلا بإذنه ﴿إلا من شهد بالحقِّ﴾ أي إلا لمن شهد بالحق ، وآمن عن علم وبصيرة ، فإنه تنفع شفاعته عند الله ﴿وهم يعلمون﴾ أي وهم يعلمون أن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه قال المفسرون :والمرادُ بـ﴿من شهد بالحقِّ﴾ عيسى وعزير والملائكة ، فإنهم يشهدون بالحق والوحدانية للّهِ ، فهؤلاء تنفع شفاعتهم للمؤمنين وإن كانوا قد عُبدوا من دون الله ﴿ولئنْ سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ اللّهُ﴾ أي ولئن سألت يا محمد كفار مكة من الذي خلقهم وأوجدهم ؟ ليقولُنَّ اللهُ خلقنا ، فهم يعترفون بأنه الخالق ثم يعبدون غيره ممن لا يقدر على شيء ﴿فأنَّى يُؤفكون﴾ أي فكيف ينصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان ؟ فهم في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقول ﴿وقيلِه يا ربِّ إن هؤلاء قومٌ لا يؤمنون﴾ أي وقول محمد في شكواه لربه يا ربِّ إن هؤلاء قوم معاندون جبارون لا يصدقون برسالتي ولا بالقرآن قال قتادة : هذا قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه عز وجل[3] ﴿فاصْفَحْ عنهُم وقُلْ سلامٌ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد وسامحهم ولا تقابلهم بمثل ما يقابلونك به قال الصاوي : وهو تباعدٌ وتبرؤٌ منهم ، وليس في الآية مشروعية السلام على الكفار[4] وقال قتادة : أمر بالصفح عنهم ثم أُمر بقتالهم ، فصار الصفح منسوخاً بالسيف[5] ﴿فسوف يعلمون﴾ أي فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم ، وهو وعيدٌ

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٣٣ . (٢) المختصر ٣/٢٩٨ . (٣) نفس المرجع السابق .
(٤) حاشية الصاوي ٤/٥٦ . (٥) تفسير القرطبي ١٦/١٢٤ .

وتهديد للمشركين ، وتسلية لرسول الله ﷺ [١]

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التشبيه البليغ ﴿جعل لكـم الأرض مهداً﴾ أي كالمهد والفراش حذفـت منـه الأداة ووجـه الشبـه فأصبح بليغاً .

٢ ـ الاستعارة التبعية ﴿فأنشرنا به بلدةً ميتاً﴾ شبَّه الأرض قبل نزول المطـر بالإنسـان الميت ثم أنشرها الله أي أحياها بالمطر ففيه استعارة تبعية .

٣ ـ التأكيد بإنَّ واللام مع صيغة المبالغة ﴿إنَّ الانسان لكفورٌ مبين﴾ لأن فعول وفعيل من صيغ المبالغة .

٤ ـ الأسلوب التهكمي للتوبيخ والتقريع ﴿أم اتخذ مما يخلق بناتٍ وأصفاكم بالبنين﴾ ؟ وبين لفظ البنات والبنين طباقٌ .

٥ ـ المجاز المرسل ﴿وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه﴾ المراد بالكلمة الجملة التي قالها ﴿إنني براءٌ مما تعبدون﴾ ففي اللفظ مجاز .

٦ ـ الاستعارة ﴿أفأنت تسمع الصُمَّ أو تهدي العمـي﴾ شبـه الكفـار بالصـم والعمي بطـريق الاستعارة التمثيلية .

٧ ـ جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا من قبلـك من رُسُلنـا﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف بينهما .

٨ ـ حذف الإيجاز ﴿بصحافٍ من ذهب وأكواب﴾ أي أكواب من ذهب وحذف لدلالة السابـق عليه .

٩ ـ ذكر العام بعد الخاص ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس﴾ بعد قوله ﴿يُطاف عليهم بصحافٍ﴾ الآية .

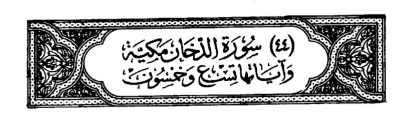
١٠ ـ الطباق ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرَّهم ونجواهم﴾ لأن المراد سرَّهم وعلانيتهم .

١١ ـ السجع الرصين غير المتكلف مثل ﴿كذلك تُخرجون﴾ ﴿من الفلك والأنعام ما تركبـون﴾ ﴿وإنّـا إلى ربنا لمنقلبون﴾ وغير ذلك وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الزخرف »

* * *

(١) أبو السعود ٥/ ٥١ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الدخان مكية وهي تتناول أهداف السور المكية « التوحيد ، الرسالة ، البعث » لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الايمان .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم ـ المعجزة الخالدة ـ الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ، وقد تحدثت عن إنزال الله تعالى له في ليلةٍ مباركة من أفضل ليالي العمر هي « ليلة القدر » وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التي تُفصَّل وتدبَّر فيها أمور الخلق ، والتي اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية على خاتم الأنبياء والمرسلين محمدﷺ .

* ثم تحدثت عن موقف المشركين من هذا القرآن العظيم ، وأنهم في شكٍ وارتياب من أمره ، مع وضوح آياته ، وسطوع براهينه ؛ وأنذرتهم بالعذاب الشديد .

* ثم تحدثت عن قوم فرعون ، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال نتيجة الطغيان والإجرام ، وعن الآثار التي تركوها بعد هلاكهم ، من قصور ودور ، وحدائق وبساتين ، وأنهار وعيون ، وعن ميراث بني إسرائيل لهم ، ثم ما حدث لهم من تشرد وضياع بسبب عصيانهم لأوامر الله .

* وتناولت السورة الكريمة مشركي قريش ، وإنكارهم للبعث والنشور ، واستبعادهم للحياة مرة أخرى ولذلك كذبوا الرسول ، وبينت أن هؤلاء المكذبين ليسوا بأكرم على الله ممن سبقهم من الأمم الطاغية ، وأن سنة الله لا تتخلف في إهلاك الطغاة المجرمين .

* وختمت السورة الكريمة ببيان مصير الأبرار ومصير الفجار ، بطريق الجمع بين الترغيب والترهيب ، والتبشير والإنذار .

التسمية : سميت « سورة الدخان » لأن الله تعالى جعله آية لتخويف الكفار ، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسولﷺ وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا ، ثم نجّاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبيﷺ .

قال الله تعالى: ﴿حمٓ * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة . إلى. .وما كانوا منظرين﴾ من آيه (١) إلى نهاية آية (٢٩) .

اللغَة : ﴿يُفرق﴾ يُبيَّن ويُفصَّل ﴿ارتقب﴾ انتظر ﴿يغشى﴾ يغطي ويحيط ﴿نبطش﴾ نأخذ بشدة وعنف ﴿فتنّا﴾ ابتلينا وامتحنا ﴿تعلوا﴾ تتكبروا وتتطاولوا ﴿عُذت﴾ استجرتُ والتجأت إلى الله ﴿أسرِ﴾ سر ليلاً ﴿رهْواً﴾ ساكناً ، والرهو عند العرب الساكن قال الشاعر :

والخيلُ تمزع رهواً في أعنَّتها ... كالطير تنجو من الشُّؤبوب ذي البرد[١]

قال الجوهري : رها البحر أي سكن ، وجاءت الخيل رهواً أي برفق وسكينة ﴿منظرين﴾ مؤخرين ﴿نعمة﴾ النَّعمة بفتح النون من التنعيم وهو سعة العيش والراحة ، وبالكسر من المنة وهي العطية والإفضال .

سَبَبُ النّزول : عن ابن مسعود قال : إن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحطٌ وجهدٌ حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهْد ، فأنزل الله تعالى ﴿فارتقبْ يوم تأتي السماء بدخانٍ مبين﴾ فأُتي رسولُ الله ﷺ فقيل يا رسول الله : استسق لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى فَسُقوا فنزلت ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾[٢] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم[٣] ﴿والكتاب المبين﴾ أي أُقسم بالقرآن البيِّن الواضح ، الفارق بين طريق الهدى والضلال ، البيِّن في إعجازه ، الواضح في أحكامه ، وجوابه ﴿إنا أنزلناه في ليلةٍ مباركة﴾ أي أنزلنا القرآن في ليلةٍ فاضلة كريمة هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن﴾ قال ابن جزي : وكيفيةُ إنزاله فيها أنه أُنزل الى السماء الدنيا جملةً واحدة ، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ شيئاً بعد شيء[٤] ، وقيل : المعنى ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر ، قال القرطبي : ووصف الليلة بالبركة لما يُنزل اللهُ فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب[٥] ﴿إنّا كنا مُنْذرين﴾ أي لننذر به الخلق ، لأن من شأننا وعادتنا ألاَّ نترك

---

(١) البيت للنابغة الذبياني كذا في القرطبي ١٦/ ١٣٧ ومعنى الشؤوب : السحاب العظيم القطر .

(٢) الحديث أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود . (٣) انظر تفصيل الموضوع في أول سورة البقرة .

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٤ . (٥) تفسير القرطبي ١٦/ ١٢٦ .

فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

الناس دون إنذار وتحذيرٍ من العقاب ، لتقوم الحجة عليهم ﴿فيها يُفرق كلُّ أمرٍ حكيم﴾ أي في ليلة القدر يُفصل ويُبيَّن كلُّ أمرٍ محكم من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم فلا يُبدَّل ولا يُغيَّر قال ابن عباس : يحكم الله أمر الدنيا الى السنة القابلة ما كان من حياةٍ ، أو موت ، أو رزقٍ قال المفسرون : إن الله تعالى ينسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر ، ما يكون في تلك السنة من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم من خير وشر ، وصالح وطالح ، حتى إن الرجل ليمشي في الأسواق وينكحُ ويُولد له وقد وقع اسمه في الموتى[١] ﴿أمراً من عندنا﴾ أي جميع ما نقدِّره في تلك الليلة وما نوحي به إلى الملائكة من شئون العباد ، هو أمرٌ حاصل من جهتنا ، بعلمنا وتدبيرنا ﴿إنَّا كنا مرسلين﴾ أي نرسل الأنبياء إلى البشر بالشرائع الإلهية لهدايتهم وإرشادهم ﴿رحمةً من ربك﴾ أي من أجل الرأفة والرحمة بالعباد قال في البحر : وضع الظاهر ﴿ربك﴾ موضع الضمير « رحمةً منا » إيذاناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين[٢] ﴿إنه هو السميعُ العليم﴾ أي السميع لأقوال العباد ، العليمُ بأفعالهم وأحوالهم ﴿ربِّ السمواتِ والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ أي الذي أنزل القرآن هو ربُّ السمواتِ والأرض وخالقهما ومالكهما ومن فيهما ، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين ﴿لا إله إلا هو يُحيي ويُميتُ﴾ أي لا ربَّ غيره ، ولا معبود سواه ، لأنه المتصف بصفات الجلال والكمال ، يُحيي الأموات ، ويميت الأحياء ﴿ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين﴾ أي هو خالقكم وخالق من سبقكم من الأمم الماضين قال الرازي : والمقصودُ من الآية أن المنزل إذا كان موصوفاً بهذه الجلالة والكبرياء ، كان المُنزَل ـ الذي هو القرآن ـ في غاية الشرف والرفعة[٣] ﴿بل هم في شكٍ يلعبون﴾ أي ليسوا موقنين فيما يظهرونه من الإيمان في قولهم : اللهُ خالقنا ، بل هم في شكٍ من أمر البعث ، فهم يلعبون ويسخرون ويهزءون قال شيخ زاده : التفت من الخطاب للغيبة فقال ﴿بل هم في شكٍ يلعبون﴾ تحقيراً لشأنهم ، وإبعاداً لهم عن موقف الخطاب ، لكونهم من أهل الشك والامتراء ، وكونُ أفعالهم الهزء واللعب لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة ، وعدم تمييزهم بين الحق والباطل ، والضار والنافع[٤] ، ثم لما بيَّن أن شأنهم الحماقة والطغيان التفت إلى حبيبه ﷺ تسليةً له ، وإقناطاً من إيمانهم فقال ﴿فارتقبْ يوم تأتي السماءُ بدخان مبين﴾ أي فانتظر يا محمد عذابهم يوم تأتي السماءُ بدخانٍ كثيف ، بيِّنٍ واضح يراه كل أحد قال ابن مسعود : إن قريشاً لما عصت الرسولﷺ دعا عليهم فقال : « اللهم اشدُد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣١٠ . (٢) البحر المحيط ٨/ ٣٣ .
(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٤١ . (٤) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٣١١ .

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾

يوسف » فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف ، وكان الرجل يُحدِّث أخاه فيسمع صوته ولا يراه لشدة الدخان المنتشر بين السماء والأرض ، ثم قال ابن مسعود : خمسٌ قد مضين : « الدخانُ ، والروم ، والقمر ، والبطشة ، واللزام »[1] وقال ابن عباس : لم يمض الدخان بل هو من أمارات الساعة ، وهو يأتي قُبيل القيامة ، يصيبُ المؤمن منه مثلُ الزكام ، ويُنضجُ رءوس الكافرين والمنافقين ، حتى يصبح رأس الواحد كالرأس المشوي ، ويغدو كالسكران فيملأ الدخان جوفه ويخرج من منخريه وأذنيه ودبره[2] ﴿يغشى النَّاس هذا عذابٌ أليم﴾ أي يشمل كفار قريش ويعمهم من كل جانب ويقولون حين يصيبهم الدخان : هذا عذاب أليم ﴿ربَّنا اكشفْ عنا العذاب إنَّا مؤمنون﴾ أي ويقولون مستغيثين : ربَّنا ارفع عنا العذاب فإننا مؤمنون بمحمد وبالقرآن إن كشفته عنا قال البيضاوي : وهذا وعدٌ بالإيمان إن كشف العذاب عنهم[3] ﴿أنَّى لهم الذكرى﴾ ؟ استبعادٌ لإيمانهم أي من أين يتذكرون ويتعظون عند كشف العذاب ؟ ﴿وقد جاءهم رسولٌ مبين﴾ أي والحال أنه قد أتاهم رسولٌ بيِّن الرسالة ، مؤيدٌ بالبينات الباهرة ، والمعجزات القاهرة ، ومع هذا لم يؤمنوا به ولم يتبعوه ؟ ﴿ثم تولَّوْا عنه وقالوا معلَّم مجنون﴾ أي ثم أعرضوا عنه وبهتوه ، ونسبوه إلى الجنون - وحاشاه - فهل يُتوقع من قومٍ هذه صفاتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير ؟ ! قال الإمام الفخر : إن كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على محمد ﷺ قولان : منهم من كان يقول : إن محمداً يتعلم هذا الكلام من بعض الناس ، ومنهم من كان يقول : إنه مجنون والجنُّ تلقي عليه هذا الكلام حال تخبطه[4] ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ أي سنكشف عنكم العذاب زمناً قليلاً ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان قال الرازي : والمقصودُ التنبيه على أنهم لا يوفون بعهدهم ، وأنهم في حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى ، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر وتقليد الأسلاف[5] قال ابن مسعود : لما كشف عنهم العذاب باستسقاء النبي ﷺ عادوا إلى تكذيبه ﴿يومَ نبْطش البطْشة الكُبرى إنا منتقمون﴾ أي واذكر يوم نبطش بالكفار بطشتنا الكبرى انتقاماً منهم ، والبطشُ : الأخذُ بقوة وشدة قال ابن مسعود : « البطشة الكبرى » يوم « بدر » وقال ابن عباس : هي يوم القيامة قال ابن كثير : والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يومُ بدر يومَ بطشةٍ أيضاً[6] وقال الرازي : القول الثاني أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف به هذا الوصف

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤ . (٢) قول ابن مسعود هو الأظهر وقد اختاره أبو السعود وقال : هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم، وذكر ابن كثير الرأيين ثم رجح رأي ابن عباس وقال : إن ما أوردوه فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن . اهـ ابن كثير ٣/ ٣٠٠ .
(٣) تفسير البيضاوي ٣/ ٣١٢ . (٤) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٤٤ . (٥) نفس المرجع السابق (٦) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٢ .

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

العظيم ، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة ، ولمـا وصف بكونها «كبرى» وجب أن تكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق ، وذلك إنما يكون في القيامة[1] ، ثم ذكّر كفار قريش بما حلّ بالطاغين من قوم فرعون فقال ﴿ولقـد فتنّـا قبلهـم قومَ فرعون﴾ أي ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم أقباط مصر ﴿وجاءهـم رسـولٌ كريـم﴾ أي وجاءهم رسولٌ شريف الحسب والنسب ، من أكرم عباد الله وهو موسى الكليم عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿أنْ أدّوا إلـيَّ عبادَ اللـه﴾ أي فقال لهم موسى : ادفعوا إليَّ عبادَ الله وأطلقوهم من العذاب ، يريد بني إسرائيل[2] كقوله تعالى ﴿فأرسـل معنـا بنـي إسرائيل ولا تعذبهم﴾ ﴿إنـي لكـم رسولٌ أميـن﴾ أي إني رسولٌ مؤتمنٌ على الوحي غير متهم ، وأنا لكم ناصح فاقبلوا نصحي ﴿وأن لا تعلوا علـى اللّـه﴾ أي لا تتكبروا على الله ولا تترفّعوا عن طاعته ﴿إنـي آتيكـم بسلطانٍ مبيـن﴾ أي قد جئتكم بحجةٍ واضحة ، وبرهانٍ ساطع ، يعترف بهما كل عاقل ﴿وإنـي عُـذْت بربّـي وربكـم أن ترجمُـون﴾ أي التجأت إليه تعالى واستجرت به من أن تقتلوني قال القرطبي : كأنهم توعّدوه بالقتل فاستجار بالله[3] ﴿وإن لـم تؤمنـوا لـي فاعتزلـون﴾ أي وإن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أتيتكم به من الحجة ، فكفوا عن أذاي وخلّوا سبيلي قال ابن كثير : أي لا تتعرضوا لي ودعوا الأمر مسالمةً إلى أن يقضي الله بيننا[4] ﴿فدعـا ربَّـه أنَّ هـؤلاء قومٌ مجرمون﴾ أي فدعا عليهم لمّا كذبوه قائلاً : يا ربِّ إن هؤلاء قوم مجرمون فانتقم منهم ﴿فأسْـر بعبادي ليلاً إنكـم متَّبعـون﴾ في الكلام حذف تقديره فأوحينا اليه وقلنا له : أسر بعبادي أي اخرج ببني إسرائيل ليلاً فإن فرعون وقومه يتبعونكم ، ويكون ذلك سبباً لهلاكهم ﴿واترك البحـر رهـواً﴾ أي واترك البحر ساكناً منفرجاً على هيئته بعد أن تجاوزه ﴿إنهـم جنـدٌ مُغرقـون﴾ أي إنَّ فرعون وقومه سيغرقون فيه قال في التسهيل : لمـا جاوز موسى البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق ، فأمره الله بأن يتركه ساكناً كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه[5] ، وإنما أخبره تعالى بذلك ليبقى فارغ القلب من شرهـم وإيذائهـم ، مطمئنـاً إلى أنهـم لن يدركوا بنـي إسرائيل ، ثم أخبر تعالى عن هلاكهم فقال ﴿كـم تركـوا مـن جناتٍ وعيـون﴾ كم للتكثير أي لقد تركوا كثيراً من البساتين والحدائق الغناء والأنهار والعيون الجارية ﴿وزروع ومقـامٍ كريـم﴾ أي ومزارع عديدة

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٤٤ . (٢) هذا قول مجاهد واختاره في التسهيل ، وروي عن ابن عباس أن معناه : أن أدّوا إليَّ الطاعة والايمان يا عباد الله .
(٣) تفسير القرطبي ١٦/ ١٣٥ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٢ . (٥) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٥ .

وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

فيها أنواع المزروعات ومجالس ومنازل حسنة قال قتادة : ﴿ومقام كريم﴾ هي المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها[1] ﴿ونَعمةٍ كانوا فيها فاكهين﴾ أي وتنعم بالعيش مع الحسن والنضارة كانوا فيها ناعمين بالرفاهية وكمال السرور قال الإمام الفخر : بيَّن تعالى أنهم بعد غرقهم تركوا هذه الأشياء الخمسة وهي : الجنات ، والعيون ، والزروع ، والمقام الكريم ـ وهو المجالس والمنازل الحسنة ـ ونعمة العيش بفتح النون وهي حسنُه ونضارته[2] ﴿كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾ أي كذلك فعلنا بهم حيث أهلكناهم وأورثنا ملكهم وديارهم لقومٍ آخرين ، كانوا مستعبدين في يد القبط وهم بنو إسرائيل قال ابن كثير : والمراد بهم بنو إسرائيل فقد استولوا ـ بعد غرق فرعون وقومه ـ على الممالك القبطية ، والبلاد المصرية كما قال تعالى ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ وقال تعالى في مكان آخر ﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾[3] ﴿فما بكتْ عليهم السماءُ والأرض﴾ أي فما حزن على فقدهم أحد ، ولا تأثر بموتهم كائن من الخلق ﴿وما كانوا منظرين﴾ أي وما كانوا مؤخرين وممهلين إلى وقت آخر . بل عُجِّل عقابهم في الدنيا قال القرطبي : تقول العرب عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض ، أي عمَّت مصيبتُه الأشياء حتى بكته الأرض والسماء ، والريح والبرق قال الشاعر :

فيا شجر الخابور مالك مورقاً ... كأنك لم تجزع لموتِ طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً في وجوب الجزع والبكاء عليه والمعنى أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم ولم يوجد لهم فقد ، وقيل هو على حذف مضاف أي ما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض[4] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . . إلى . . فارتقبْ إنهم مرتقبون﴾ من آية (٣٠) إلى آية (٥٩) نهاية السورة .

المناسَبَة : لما ذكر تعالى إهلاك فرعون وقومه ، أردفه بذكر إحسانه لبني إسرائيل ، ليشكروا ربهم على إنعامه وإحسانه ، ثم حذَّر كفار مكة من بطش الله وانتقامه ، وختم السورة الكريمة ببيان حال الأشقياء والسعداء في يوم الفصل والجزاء .

اللغَة : ﴿عالياً﴾ متكبراً جباراً ﴿بلاء﴾ اختبار وامتحان ﴿منشرين﴾ مبعوثين بعد الموت ، وأنشر الله الموتى أحياهم ﴿قوم تُبَّع﴾ ملوك اليمن ، وكانوا يسمون ملوكهم التبابعة قال الجوهري :

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٦ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٤٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٣ . (٤) تفسير القرطبي ١٦/ ١٣٩ .

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

التبابعة ملوك اليمن ، واحدهم تُبَّع[1] ، وقال أهل اللغة : تُبَّع لقب للملك منهم كالقياصرة للروم ، والأكاسرة للفرس، والخلفاء للمسلمين[2] ﴿يوم الفصل﴾ يوم القيامة ﴿مولى﴾ قريب وناصر ﴿المهل﴾ النحاس المذاب ﴿الأثيم﴾ الفاجر من أثِمَ الرجل يأثم إذا وقع في الإثم والفجور ﴿اعتلوه﴾ جرُّوه وسوقوه بعنفٍ وشدةٍ ﴿سُندس﴾ رقيق الديباج ﴿استبرق﴾ غليظ الديباج ﴿عين﴾ واسعات الأعين جمع عيناء ﴿ارتقب﴾ انتظر .

التفسير : ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المُهين﴾ أي والله لقد أنقذنا بني إسرائيل من العذاب الشديد ، المفرط في الإذلال والإهانة ، وهو قتل أبنائهم واستخدام نسائهم ، وإرهاقهم في الأعمال الشاقة ﴿من فرعونَ إنه كان عالياً من المسرفين﴾ أي من طغيان فرعون وجبروته إنه كان متكبراً جباراً ، متجاوزاً الحد في الطغيان والإجرام قال الصاوي : هذا من جملة تعداد النعم على بني إسرائيل ، والمقصود من ذلك تسليته ﷺ وتبشيره بأنه سينجيه وقومه المؤمنين من أيدي المشركين ، فإنهم لم يبلغوا في التجبر مثل فرعون وقومه[3] ﴿ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين﴾ أي اصطفيناهم وشرفناهم على علمٍ منا باستحقاقهم لذلك الشرف على جميع الناس في زمانهم قال قتادة : على أهل زمانهم ، لا على أمة محمد لقوله تعالى ﴿كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس﴾ ﴿وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاءٌ مبين﴾ أي وآتيناهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ما فيه اختبار وامتحان ظاهر جليٌ لمن تدبَّر وتبصَّر قال الرازي : والآياتُ مثل فلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المنِّ والسلوى وغيرها من الآيات الباهرة ، التي ما أظهر الله مثلها على أحدٍ سواهم[4] ﴿إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى﴾ أي إن كفار قريش ليقولون : لن نموت إلا موتةً واحدةً وهي موتتنا الأولى في الدنيا ، وفي قوله تعالى ﴿هؤلاء﴾ تحقيرٌ لهم وازدراءٌ بهم قال المفسرون : لمَّا كان الحديث في أول السورة عن كفار مكة ، وجاءت قصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة والكفر، رجع إلى الحديث عن كفار قريش ، والغرضُ من قولهم ﴿إن هي إلاّ موتتنا الأولى﴾ إنكار البعث كأنهم قالوا : إذا متنا فلا بعث ولا حياة ولا نشور ، ثم صرحوا بذلك بقولهم ﴿وما نحنُ بِمنشرين﴾ أي وما نحن بمبعوثين ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ خطابٌ للرسول ﷺ والمؤمنين على وجه التعجيز أي أحيوا لنا آباءنا ليخبرونا بصدقكم إن كنتم صادقين في أن هناك حياةً بعد هذه الحياة قال الإمام الفخر : إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن

(١) الصحاح للجوهري مادة تبع . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ١٤٤ .
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤٨/ ٦٠ . (٤) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٤٨ .

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾

قالوا : إن كان البعث والنشور ممكناً معقولاً فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا ليصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في البعث يوم القيامة[1] وقال **القرطبي** : قائل هذا أبو جهل ، قال يا محمد : إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما : قُصي بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً ، لنسأله عما يكون بعد الموت[2] **﴿أهم خيرٌ أم قومُ تُبَّع﴾** استفهام انكار مع التهديد أي أهؤلاء المشركون أقوى وأشدُّ أم أهل سبأ ملوك اليمن ؟ الذين كانوا أكثر أموالاً ، وأعظم نعماً من كفار مكة ؟ **﴿والذين من قبلهم أهلكناهم﴾** أي والذين سبقوهم من الأمم العاتية أهلكناهم ، وخربنا بلادهم ، وفرقناهم شذر مذر قال **أبو السعود** : والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد ، أولي بأسٍ شديد ، فأولئك كانوا أقوى من هؤلاء ، وقد أهلكهم الله مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة ، فإهلاك هؤلاء أولى[3] **﴿إنهم كانوا مجرمين﴾** تعليل للإهلاك أي أهلكناهم ودمرناهم بسبب إجرامهم ، وفيه وعيد وتهديد لقريش أن يفعل الله بهم ما فعل بقوم تُبَّع والمكذبين . . ثم نبه تعالى إلى دلائل البعث وهو خلق العالم بالحقِّ فقال **﴿وما خلقنا السَّموات والأرضَ وما بينهما لاعبين﴾** أي وما خلقنا هذا الكون وما فيه من المخلوقات البديعة لعباً وعبثاً **﴿ما خلقناهما إلا بالحقِّ﴾** أي ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا بالعدل والحقِّ المبين ، لنجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته **﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾** أي ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك فينكرون البعث والجزاء قال **المفسرون** : إن الله تعالى خلق النوع الإنساني ، وخلق ما ينتظم به أسباب معاشهم ، من السقف المرفوع ، والمهادِ المفروش ، وما بينهما من عجائب المصنوعات ، وبدائع المخلوقات ، ثم كلفهم بالإيمان والطاعة ، فآمن البعض وكفر البعض ، فلا بدَّ إذاً من دار جزاء يثاب فيها المحسن ، ويعاقب فيها المسيء ، لتجزى كل نفسٍ بما كسبت ، ولو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لهواً وعبثاً ، وتنزَّه الله عن ذلك ، ولهذا قال بعده **﴿إنَّ يوم الفصل ميقاتُهم أجمعين﴾** أي إن يوم القيامة موعد حساب الخلائق أجمعين ، سُمي **﴿يوم الفصل﴾** لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلق كما قال تعالى **﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾** **﴿يومَ لا يُغني مولىً عن مولى شيئاً ولا هم يُنصرون﴾** أي في ذلك اليوم الرهيب ، لا يدفع قريب عن قريبه ، ولا صديقٌ عن صديقه ، ولا ينفع أحدٌ أحداً ولا ينصره ولو كان قريبه كقوله **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والدٌ عن ولده ، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً﴾** **﴿إلاَّ من رحم اللهُ﴾** استثناء متصل أي لا يغني قريبٌ عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض[4] وقيل : منقطع أي لكنْ من رحمه اللهُ

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٤٩ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ١٤٤ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٥٥ . (٤) البحر المحيط ٨/ ٣٩ .

ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾

فإنه يشفع وينفع قال ابن عباس : يريد المؤمن فإنه تشفع له الأنبياء والملائكة[1] ﴿إنه هو العزيز الرحيم﴾ أي هو المنتقم من أعدائه ، الرحيمُ بأوليائه . . ولما ذكر الأدلة على القيامة ، أردفه بوصف ذلك اليوم العصيب ، فذكر وعيد الكفار أولاً ثم وعد الأبرار ثانياً للجمع بين الترهيب والترغيب فقال ﴿إنَّ شجرةَ الزقوم طعامُ الأثيم﴾ أي إن هذه الشجرة الخبيثة ـ شجرة الزقوم ـ التي تنبتُ في أصل الجحيم ، طعام كل فاجر ، ليس له طعام غيرها قال أبو حيان : الأثيمُ صفة مبالغة وهو الكثير الآثام ، وفُسِّر بالمشرك[2] ﴿كالمُهل يغلي في البطون﴾ أي هي في شناعتها وفظاعتها إذا أكلها الإنسان كالنحاس المذاب الذي تناهى حرُّه ، فهو يُجرجر في البطن ﴿كغلي الحميم﴾ أي كغليان الماء الشديد الحرارة قال القرطبي : وشجرة الزقوم هي الشجرة التي خلقها الله في جهنم ،وسمَّاها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، فغلت في بطونهم كما يغلي الماء الحار ، وشبَّه تعالى ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهل وهو النحاس المذاب ، والمرادُ بالأثيم الفاجر ذو الإثم وهو أبو جهل ، وذلك أنه كان يقول : يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم ، وإنما هو الثَّريد بالزبد والتمر[3] ، ثم يأتي بالزبد والتمر ويقول لأصحابه : تزقموا ، سخريةً واستهزاءً بكلام الله ، قال تعالى ﴿خذوه فاعتلُوه إلى سواءِ الجحيم﴾ أي يُقال للزبانية : خذوا هذا الفاجر اللئيم فسوقوه وجروه من تلابيبه بعنف وشدة إلى وسط الجحيم ﴿ثم صبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم﴾ أي ثم صبوا فوق رأس هذا الفاجر عذاب ذلك الحميم الذي تناهى حرُّه ﴿ذقْ إنكَ أنتَ العزيزُ الكريم﴾ أي يقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة : ذقْ هذا العذاب فإنك أنت المعزَّز المكرَّم قال عكرمة : التقى النبيﷺ بأبي جهل فقال النبيﷺ : إنَّ الله أمرني أن أقول لك ﴿أولى لكَ فأولى﴾ فقال : بأي شيءٍ تهددني ! واللهِ ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً ، إني لمن أعزِّ هذا الوادي وأكرمه على قومه ، فقتله الله يوم بدر وأذلَّه ونزلت هذه الآية[4] ﴿إنَّ هذا ما كنتم بهِ تمترون﴾ أي إنَّ هذا العذاب هو ما كنتم تشكُّون به في الدنيا ، فذوقوه اليوم ﴿أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تُبصرون﴾ والجمعُ في الآية باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم . . ولما ذكر تعالى أحوال أهل النار أتبعه بذكر أحوال أهل الجنة فقال ﴿إن المتقين في مقامٍ أمين﴾ أي الذين اتقوا اللهَ في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، هم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكاره ، وهو الجنة ولهذا قال بعده ﴿في جناتٍ وعيون﴾ أي في حدائق وبساتين ناضرة ، وعيونٍ جارية ﴿يلْبسون من

(١) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٥١ . (٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩ . (٣) تفسير القرطبي ١٦/ ١٤٩ . (٤) القرطبي ١٦/ ١٥١ .

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سُنْدس واستبرق﴾ أي يلبسون ثياب الحرير ، الرقيق منه وهو السندس ، والسميك منه وهو الاستبرق ﴿متقابلين﴾ أي متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كذلك وزوجناهم بحورٍ عينٍ﴾ أي كذلك أكرمناهم بأنواع الإكرام ، وزوجناهم أيضاً بالحور الحسان في الجنان قال البيضاوي : أي قرناهم بالحور العين ، والحوراءُ: البيضاءُ ، والعيناءُ: عظيمة العينين[1] ، وإنما وصف تعالى نعيمهم بذلك لأن الجنات والأنهار من أقوى أسباب نزهة الخاطر ، وانفراجه عن الغم ، ثم ذكر الحور الحِسان لأن بها اكتمال سعادة الإنسان كما قيل « ثلاثةٌ تنفي عن القلب الحزن : الماء ، والخضرةُ ، والوجهُ الحسن » ثم زاد في بيان النعيم فقال ﴿يدْعون فيها بكلِّ فاكهةٍ آمنين﴾ أي يطلبون من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه في الجنة ، لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض ، فلا تعب في الجنة ولا وَصَب ﴿لا يذوقون فيها الموتَ إلاَّ الموتة الأولى﴾ استثناء منقطع أي لا يذوقون في الجنة الموت لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا فلم يعد ثمة موت ، بل خلود أبد الآبدين ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ أي خلَّصهم ونجَّاهم من عذاب جهنم الشديد الأليم ﴿فضلاً من ربك﴾ أي فعل ذلك بهم تفضلاً منه تعالى عليهم ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي ذلك الذي أعطوه من النعيم ، هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾ أي فإنما سهلنا القرآن بلغتك ـ وهي لسان العرب ـ لعلهم يتعظون وينزجرون ﴿فارتقب إنهم مرتقبون﴾ أي فانتظر يا محمد ما يحل بهم ، إنهم منتظرون هلاكك ، وسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر في الدنيا والآخرة ، وفيه وعد للرسول ﷺ ووعيد للمشركين .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ صيغة المبالغة ﴿السميع العليم﴾ ﴿العزيز الرحيم﴾ ﴿العزيز الكريم﴾ .

٢ ـ الطباق ﴿لا إله إلا هو يُحيي ويميت﴾ وكذلك ﴿إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين﴾ .

٣ ـ تحريك الهمة للإيمان والتبصر ﴿إن كنتم موقنين﴾ .

٤ ـ الإيجاز بحذف بعض الكلام ﴿أنْ أسر بعبادي﴾ أي وقلنا له بأن أسر .

٥ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ أي لم يتغير بهلاكهم شيء ولم تحزن عليهم السماء والأرض بعد انقطاع آثارهم ، والعرب يقولون في التعظيم : بكت عليه السماء والأرض ،

(١) تفسير البيضاوي ٢/١٨٢ .

وأظلمت له الدنيا ويقولون في التحقير : مات فلان فلم تخشع له الجبال .

٦ ـ أسلوب التعجيز ﴿فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ .

٧ ـ أسلوب التهكم والسخرية ﴿ذقْ إنك أنت العزيز الكريم﴾ .

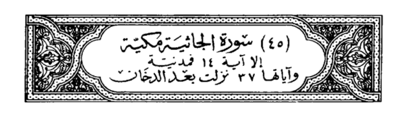
٨ ـ التفجع وإظهار الأسى والحسرة ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم﴾ ؟

٩ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿كالمهل يغلي في البطون . كغلي الحميم﴾ .

١٠ ـ السجع الرصين غير المتكلف الذي يزيد في رونق الكلام وجماله إقرأ مثلاً قوله تعالى ﴿إن شجرةَ الزقوم طعامُ الأثيم . كالمهل يَغْلي في البطونِ كغلي الحميم . خذوه فاعْتِلُوه إلى سواء الجحيم . ثم صبُّوا فوق رأسه من عذاب الجحيم . ذقْ إنك أنت العزيز الكريم﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الدخان »

* * *



بين يدي السورة

* سورة الجاثية مكية ، وقد تناولت العقيدة الإسلامية في إطارها الواسع « الايمان بالله تعالى ووحدانيته ، الايمان بالقرآن ونبوة محمد عليه السلام ، الايمان بالآخرة والبعث والجزاء » ويكاد يكون المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين .

* تبتدىء السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ومصدره ، وهو اللهُ العزيز في ملكه ، الحكيم في خلقه ، الذي أنزل كتابه المجيد رحمةً بعباده ، ليكون نبراساً مضيئاً ينير للبشرية طريق السعادة والخير .

* ثم ذكرت الآيات الكونية المنبثة في هذا العالم الفسيح ، ففي السموات البديعة آياتٌ ، وفي الأرض الفسيحة آياتٌ ، وفي خلق البشر وسائر الأنعام والمخلوقات آياتٌ ، وفي تعاقب الليل والنهار ، وتسخير الرياح والأمطار آياتٌ ، وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله وجلاله ، وقدرته ووحدانيته ، ثم تحدثت عن المجرمين المكذبين بالقرآن ، الذين يسمعون آياته المنيرة ، فلا يزدادون إلا استكباراً وطغياناً ، وأنذرتهم بالعذاب الأليم في دركات الجحيم .

* وتحدثت السورة عن نعم الله الجليلة على عباده ليشكروه ، ويتفكروا في آلائه التي أسبغها عليهم ، ويعلموا أنَّ الله وحده هو مصدر هذه النعم ، الظاهرة والباطنة ، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله .

* وتحدثت عن إكرام الله لبني إسرائيل بأنواع التكريم ، ومقابلتهم ذلك الفضل والإحسان بالجحود والعصيان ، وذكرت موقف الطغاة المجرمين من دعوة الرسل الكرام ، وبيَّنت أنه لا يتساوى في عدل الله وحكمته أن يجعل المجرمين كالمحسنين ، ولا أن يجعل الأشرار كالأبرار ، ثم بيَّنت سبب ضلال المشركين ، وهو إجرامهم واتخاذهم الهوى إلهاً ومعبوداً حتى طمست بصيرتهم فلم يهتدوا إلى الحق أبداً .

* وختمت السورة بذكر الجزاء العادل يوم الدين ، حيث تنقسم الإنسانية الى فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير .

التسمية: سميت « سورة الجاثية » للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب ، حيث تجثو الخلائق من الفزع على الركب في انتظار الحساب ، ويغشى الناس من الأهوال ما لا يخطر على البال ﴿وترى كل أمةٍ جاثيةً ، كلُّ أمةٍ تُدعى إلى كتابها اليومَ تُجزون ما كنتم تعملون﴾ وحقاً إنه ليوم رهيب يشيب له الولدان !!

* * *

قال الله تعالى : ﴿حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . . إلى . . وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠) .

اللغة : ﴿يبثُّ﴾ ينشر ويفرِّق ﴿تصريف﴾ تقليب ، صرَّف الله الريح قلَّبها من جهة إلى جهة ﴿ويلٌ﴾ كلمة تستعمل في العذاب والدمار ﴿أفَّاك﴾ كذَّاب ، والإفك : الكذبُ ﴿أثيم﴾ كثير الإثم والإجرام ﴿رجز﴾ أشد العذاب ﴿يُصرُّ﴾ أصرَّ على الشيء : عزم على البقاء عليه بقوة وشدة ﴿يغني﴾ ينفع أو يدفع ومنه ﴿ما أغنى عني ماليَهْ﴾ ﴿بصائر﴾ دلائل ومعالم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن

التفسير : ﴿حمٓ﴾ الحروف المقطَّعة للتنبيه على إعجاز القرآن[1] ﴿تنزيلُ الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ أي هذا القرآن تنزيلٌ من الله ، العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ، الذي لا يصدر عنه إلا كل ما فيه حكمةٌ ومصلحة للعباد ، ثم أخبر تعالى عن دلائل الوحدانية والقدرة فقال ﴿إنَّ في السموات والأرض لآياتٍ للمؤمنين﴾ أي إنَّ في خلق السمواتِ والأرض وما فيهما من المخلوقات العجيبة ، والأحوال الغريبة ، والأمور البديعة ، لعلامات باهرة على كمال قدرة الله وحكمته ، لقوم يصدِّقون بوجود الله ووحدانيته ﴿وفي خلقِكم وما يبُثُّ من دابةٍ آياتٌ لقومٍ يوقنون﴾ أي وفي خلقكم أيها الناسُ من نطفةٍ ثم من علقة ، متقلبة في أطوارٍ مختلفة إلى تمام الخلق ، وفيما ينشره تعالى ويُفرِّقه من أنواع المخلوقات التي تدب على وجه الأرض ، آياتٌ باهرةٌ أيضاً لقومٍ يصدِّقون عن إذعانٍ ويقين بقدرة ربِّ العالمين ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي وفي تعاقب الليل والنهار ، دائبين لا يفتران ، هذا بظلامه وذاك بضيائه ، بنظام محكم دقيق ﴿وما أنزلَ اللهُ من السَّماء من رزقٍ﴾ أي وفيما أنزله الله تبارك وتعالى من السحاب ، من المطر الذي به حياة البشر في معاشهم وأرزاقهم قال ابن كثير : وسمَّى

(١) انظر تفصيل البحث في الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من هذا التفسير .

﴿رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ﴾

تعالى المطر رزقاً لأن به يحصل الرزق[1] ﴿فأحيا بـه الأرضَ بعـدَ موتهـا﴾ أي فأحيا بالمطر الأرض بعدما كانت هامدةً يابسـة لا نبـات فيهـا ولا زرع ، فأخـرج فيهـا من أنـواع الـزروع والثمـرات والنبـات ﴿وتصريـفِ الريـاح﴾ أي وفي تقليب الرياح جنوباً وشمالاً ، باردة وحارة ﴿آيـاتٌ لقـوم يعقلـون﴾ أي علامات ساطعة واضحة على وجود الله ووحدانيته ، لقومٍ لهـم عقـول نيِّـرة وبصائـر مشرقـة قال **الصاوي**: ذكر الله سبحانه وتعالى من الدلائل ستةً في ثلاث آيات، ختم الأولى بـ ﴿للمؤمنين﴾،والثانية بـ﴿ يوقنون﴾ والثالثة بـ ﴿يعقلون﴾ ووجه التغاير بينها في التعبير أن الإنسـان إذا تأمـل في السمـواتِ والأرض ، وأنه لا بدَّ لهما من صانع آمن ، وإذا نظر في خلق نفسه ونحوها ازداد إيماناً فأيقن ، وإذا نظر في سائر الحوادث كمل عقله واستحكم علمه[2] ﴿تلـك آياتُ اللَّـهِ نتلوهـا عليـك بالحـقّ﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبراهينه ، الدالة على وحدانيته وقدرته ، نقصُّها عليك يا محمد بالحق المبين الذي لا غموض فيه ولا التباس ﴿فبـأيِ حديـثٍ بعـدَ اللَّـهِ وآياتـهِ يؤمنـون﴾ ؟ أي وإذا لم يصدِّق كفار مكة بكلام الله ، ولم يؤ منوا بحججه وبراهينه ، فبأي كلامٍ يؤ منون ويصدِّقون ؟ والغرضُ استعظام تكذيبهم للقـرآن بعـد وضوح بيانه وإعجازه ﴿ويـلٌ لكـلِّ أفَّـاكٍ أثيـمٍ﴾ أي هلاك ودمارٌ لكل كذَّابٍ مبالغٍ في اقتراف الآثام قال **الرازي** : وهذا وعيدٌ عظيم ، والأفَّاك الكذَّاب ، والأثيمُ المبالغ في اقتراف الآثام[3] ﴿يسْمـعُ آياتِ اللَّـهِ تُتـلى عليـه﴾ أي يسمع آيات القرآن تُقرأ عليه ، وهي في غاية الوضوح والبيان ﴿ثـم يُصـرُّ مستكبراً كأن لـم يسمعهـا﴾ أي ثم يدوم على حاله من الكفر ، ويتمادى في غيِّه وضلاله ، مستكبراً عن الإيمان بالآيات كأنه لم يسمعها ﴿فبشِّـرهُ بعـذابٍ أليـم﴾ أي فبشرّه يا محمد بعذاب شديد مؤلم ، وسمَّاه « بشـارة » تهكماً بهم ، لأن البشارة هي الخبر السارُّ قال في **التسهيل** : وإنما عطفه بـ « ثـم » لاستعظام الإصرار على الكفر بعد سماعه آيات الله ، واستبعاد ذلك في العقل والطبع[4] قال **المفسرون** : نزلت في « النضر بن الحارث » كان يشتري أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن ، والآيةُ عامةٌ في كل من كان موصوفاً بالصفة المذكورة ﴿وإذا علِـمَ مِـنْ آياتنـا شيْئاً اتَّخذها هُزواً﴾ أي إذا بلغه شيء من الآيات التي أنزلها الله على محمد ، سخر واستهزأ بها ﴿أولئـك لهـم عذابٌ مهيـن﴾ أي أولئك الأفاكون المستهزءون بالقرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة ﴿مـن ورائهـم جهنـم﴾ أي أمامهم جهنم تنتظرهم لما كانوا فيه

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٨ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٦٣ .
(٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦١ . (٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٣٨ .

ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

من التعزز في الدنيا والتكبر عن الحق ﴿ولا يُغني عنهم ما كسبوا شيئاً﴾ أي لا ينفعهم ما ملكوه في الدنيا من المال والولد ﴿ولا ما اتَّخذوا مِنْ دونِ الله أولياءَ﴾ أي ولا تنفعهم الأصنام التي عبدوها من دون الله ﴿ولهم عذابٌ عظيم﴾ أي ولهم عذاب دائم مؤلم **قال أبو السعود** : وتوسيط النفي ﴿ولا ما اتخذوا﴾ مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد ، مبنيٌ على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم ، وفيه تهكم بهم[1] ﴿هذا هُدىً﴾ أي هذا القرآن كامل في الهداية لمن آمن به واتَّبعه ﴿والذين كفروا بآياتِ ربهم﴾ أي جحدوا بالقرآن مع سطوعه ، وفيه زيادة تشنيع على كفرهم به ، وتفظيع حالهم ﴿لهُم عذابٌ مِن رِجزٍ أليم﴾ أي لهم عذاب من أشدِّ أنواع العذاب مؤلمٌ موجعٌ **قال الزمخشري** : والرجزُ أشدُّ العذاب ، والمراد بـ﴿آياتِ ربهم﴾ القرآن[2] . . ثم لمَّا توعَّدهم بأنواع العذاب ذكَّرهم تعالى بنعمه الجليلة ليشكروه ويوحِّدوه فقال ﴿اللهُ الذي سخَّر لكم البحر﴾ أي الله تعالى بقدرته وحكمته هو الذي ذلَّل لكم البحر على ضخامته وعِظمه ﴿لتجري الفُلك فيه بأمره﴾ أي لتسير السفنُ على سطحه بمشيئته وإرادته ، دون أن تغوص في أعماقه **قال الإمام الفخر** : خلَق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها السفن ، وخلق الخشبة على وجهٍ تبقى طافيةً على وجه الماء دون أن تغوص فيه ، وذلك لا يقدر عليه أحد إلا الله[3] ﴿ولِتبْتغُوا من فضْلهِ﴾ أي ولتطلبوا من فضل الله بسبب التجارة ، والغوص على اللؤلؤ والمرجان ، وصيد الأسماك وغيرها ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولأجل أن تشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم وتفضَّل **قال القرطبي** : ذكر تعالى كمال قدرته ، وتمام نعمته على عباده ، وبيَّن أنه خلقَ ما خلق لمنافعهم ، وكلُّ ذلك من فعله وخلقه ، وإحسانٌ منه وإنعام[4] ﴿وسخَّر لكُمْ ما في السَّموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ أي وخلق لكم كل ما في هذا الكون، من كواكب، وجبال ، وبحار ، وأنهار ، ونباتٍ ، وأشجار ، الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ، من عنده وحده جلَّ وعلا ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يتفكَّرون﴾ أي إنَّ فيما ذُكر لعبراً وعظات لقوم يتأملون في بدائع صنع الله فيستدلون على قدرته ووحدانيته ويؤمنون ، ثم لما بيَّن تعالى دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، أردفه بتعليم فضائل الأخلاق ، ومحاسن الأفعال فقال ﴿قلْ للذين آمنوا يغفروا للَّذين لا يرْجونَ أيَّام اللَّه﴾ أي قل يا محمد للمؤمنين يصفحوا عن الكفار ، ويتجاوزوا عمَّا يصدر عنهم من الأذى والأفعال

(١) تفسير أبي السعود ٥/٥٨ .(٢) الكشاف ٤/ ٢٢٧ . (٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦٢ . (٤)تفسير القرطبي ١٦/ ١٦٠ .

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

الموحشة **قال مقاتل** : شتم رجلٌ من الكفار عمر بمكة فهمَّ أن يبطش به ، فأمر الله بالعفو والتجاوز وأنزل هذه الآية[١] ، والمرادُ من قوله ﴿لا يرجون أيامَ اللَّه﴾ أي لا يخافون بأس الله وعقابه لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا بلقاء الله **قال ابن كثير** : أُمر المسلمون أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ، ليكون ذلك تأليفاً لهم ، ثم لما أصرُّوا على العناد ، شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد[٢] ﴿**ليجزيَ قوماً بما كانوا يكسبون**﴾ وعيدٌ وتهديد أي ليجازي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الإثم والإجرام ، والتنكيرُ للتحقير ﴿**من عمل صالحاً فلنفسه ومنْ أساءَ فعليها**﴾ أي من فعل خيراً في الدنيا فنفعُه لنفسه ، ومن ارتكب سوءاً وشراً فضرره عائد عليها ، ولا يكاد يسري عملٌ إلى غير عامله ﴿**ثُمَّ إلى ربكم تُرجعون**﴾ أي ثم مرجعكم يوم القيامة إلى الله وحده ، فيجازي كلاً بعمله ، المحسنَ بإحسانه ، والمسيءَ بإساءته . . ولما ذكَّر بالنعم العامة أردفه بذكر النعم الخاصة على بني إسرائيل فقال ﴿**ولقد آتينا بني إسرائيل الكتابَ والحُكمَ والنُّبوَّةَ**﴾ أي والله لقد أعطينا بني إسرائيل التوراة ، وفصل الحكومات بين الناس ، وجعلنا فيهم الأنبياء والمرسلين ﴿**ورزقناهم من الطيبات**﴾ أي ورزقناهم من أنواع النعم الكثيرة من المآكل والمشارب ، والأقوات والثمار ﴿**وفضَّلناهم على العالمين**﴾ أي وفضلناهم على سائر الأمم في زمانهم **قال الصاوي** : والمقصود من ذلك تسليته ﷺ كأنه قال : لا تحزن يا محمد على كفر قومك ، فإننا آتينا بني إسرائيل الكتاب والنعم العظيمة ، فلم يشكروا بل أصرُّوا على الكفر ، فكذلك قومك[٣] ﴿**وآتيناهم بيِّناتٍ من الأَمر**﴾ أي وبينا لهم في التوراة أمر الشريعة وأمر محمد ﷺ على أكمل وجه **قال ابن عباس** : يعني أمر النبي ﷺ وشواهد نبوته بأنه يُهاجر من تهامة إلى يثرب وينصره أهلها[٤] ﴿**فما اختلفُوا إلاَّ منْ بعدِ ما جاءهُم العلمُ**﴾ أي فما اختلفوا في ذلك الأمر ، إلا من بعد ما جاءتهم الحجج والبراهين والأدلة القاطعة على صدقه ﴿**بغْياً بينهم**﴾ أي حسداً وعناداً وطلباً للرياسة **قال الإمام الفخر** : والمقصودُ من الآية التعجبُ من هذه الحالة ، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف ، وههنا صار العلم سبباً لحصول الاختلاف ، لأنه لم يكن مقصودهم نفس العلم وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم ، فلذلك علموا وعاندوا[٥] ﴿**إنَّ ربَّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ أي هو جل وعلا الذي يفصل بين العباد يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ، وفي الآية زجرٌ للمشركين

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٧/ ٢٦٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣٠٩ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٦٥ .
(٤) حاشية الجمل ٤/ ١١٦ . (٥) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦٥ .

ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

أن يسلكوا مسلك من سبقهم من الأمم العاتية الطاغية ﴿ثم جعلناك على شريعةٍ من الأمر فاتَّبِعها﴾ أي ثم جعلناك يا محمد على طريقةٍ واضحة ، ومنهاجٍ سديد رشيد من أمر الدين ، فاتبع ما أوحى إليك ربك من الدين القيّم ﴿ولا تتَّبعْ أهواء الذين لا يعلمون﴾ أي لا تتَّبع ضلالات المشركين قال البيضاوي : لا تتبع آراء الجهال التابعة للشهوات ، وهم رؤساء قريش حيث قالوا : ارجع إلى دين آبائك[1] ﴿إنهم لن يُغْنوا عنك من الله شيئاً﴾ أي لن يدفعوا عنك شيئاً من العذاب إن سايرتهم على ضلالهم ﴿وإنَّ الظالمين بعضهم أولياءُ بعض﴾ أي وإن الظالمين يتولى بعضهم بعضاً في الدنيا ولا ولي لهم في الآخرة ﴿واللهُ وليُّ المتقين﴾ أي وهو تعالى ناصر ومعين المؤمنين المتقين في الدنيا والآخرة ﴿هذا بصائر للناسِ وهدىً ورحمة لقومٍ يوقنون﴾ أي هذا القرآن نور وضياء للناس بمنزلة البصائر في القلوب ، وهو رحمة لمن آمن به وأيقن :

* * *

قال الله تعالى : ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلهم كالذين آمنوا . . إلى . . وهو العزيز الحكيم﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٧)

المنَاسَبَة : لما حكى تعالى ضلالات بني إسرائيل ، وبيَّن أن القرآن نور وهداية لمن تمسَّك به ، أعقبه ببيان أنه لا يتساوى المؤمن مع الكافر ، ولا البر مع الفاجر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ثم ذكر الأدلة على البعث والنشور .

اللغَة : ﴿اجترحوا﴾ اكتسبوا والاجتراحُ الاكتساب ومنه الجوارح ﴿غشاوة﴾ غطاء وغشَّى الشيءَ غطَّاه ﴿جاثية﴾ باركةً على الركب لشدة الهول جثا ـ يجثو إذا قعد على ركبتيه ﴿نستنسخ﴾ استنسخ الشيء أمر بكتابته وتدوينه ﴿حاق﴾ نزل وأحاط ﴿يُستعتبون﴾ يُطلب منهم إرضاء ربهم يقال : استعتبتهُ فأعتبني أي استرضيتُه فقبل مني عذري ﴿الكبرياء﴾ العظمة والمُلك والجلال .

سَبَبُ النّزول : روي أن أبا جهلٍ طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة ، فتحدثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل : واللهِ إني لأعلم أنه لصادق ، فقال له : مهْ ، وما دلَّك على ذلك ؟ فقال يا أبا عبد شمسٍ : كنا نسميه في صباه الصادق الأمين ، فلما تمَّ عقلهُ وكمُل رشده نسميه الكذاب الخائن ! ! والله إني لأعلم أنه لصادق ، قال : فما يمنعك أن تصدِّقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدث عني بنات قريش

(١) البيضاوي على زادة ٣/ ٣٢٣ .

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

أني اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسْرة، واللاتِ والعزَّى لا أتَّبعه أبداً فنزلت ﴿أفرأيتَ من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علمٍ وختم على سمعه وقلبه . .﴾[1] الآية .

التفسير : ﴿أمْ حسِبَ الذينَ اجْترحوا السَّيِّئاتِ﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى هل يظنُّ الكفار الفجار الذين اكتسبوا المعاصي والآثام ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي أن نجعلهم كالمؤمنين الأبرار ﴿سواءً محياهم ومماتهم﴾ أي نساوي بينهم في المحيا والمات ؟ لا يمكن أن نساوي بين المؤمنين والكفار ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فإن المؤمنين عاشوا على التقوى والطاعة ، والكفار عاشوا على الكفر والمعصية ، وشتان بين الفريقين كقوله ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾ ؟ **قال مجاهد :** المؤمنُ يموت مؤمناً ويُبعث مؤمناً ، والكافر يموت كافراً ويُبعث كافراً[2] ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي ساء حكمهم في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين **قال ابن كثير :** ساء ما ظنّوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار ، فكما لا يُجتنى من الشوكِ العنبُ ، كذلك لا ينال الفُجَّار منازل الأبرار[3] ﴿وخلق اللهُ السمٰواتِ والأرضَ بالحقِّ﴾ أي وخلق الله السمواتِ والأرض بالعدل والأمر الحقِّ ليدل بهما على قدرته ووحدانيته ﴿ولتُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي ولكي يُجزى كل إنسان بعمله ، وبما اكتسب من خير أو شر ، دون أن يُنقص في ثواب المؤمن أو يُزاد في عذاب الكافر **قال شيخ زاده :** لمَّا خلق تعالى السمواتِ الأرض لإِجل إظهار الحق ، وكان خلقهما من جملة حكمته وعدله ، لزم من ذلك أن ينتقم من الظالم لأجل المظلوم ، فيثبت بذلك حشر الخلائق للحساب[4] ﴿أفرأيتَ منْ اتَّخذ إلهه هواهُ﴾ أي أخبرني يا محمد عن حال من ترك عبادة الله وعبد هواه ! ! **قال في البحر :** أي هو مطواعٌ لهوى نفسه يتبع ما تدعوه إليه ، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلٰهه[5] **قال ابن عباس :** ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئاً إلاّ ركبه ﴿وأضلَّه اللهُ على علم﴾ أي وأضلَّ الله ذلك الشقي في حال كونه عالماً بالحق غير جاهل به ، فهو أشدُّ قبحاً وشناعةً ممن يضل عن جهل ، لأنه يُعرض عن الحقِّ والهُدى عناداً كقوله تعالى ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلُواً﴾ ﴿وختم على سمْعهِ وقلبِه﴾ أي وطبع على سمعه وقلبه بحيث لا يتأثر بالمواعظ ، ولا يتفكر في الآيات والنُّذر ﴿وجعل على بصره غشاوةً﴾ أي وجعل على بصره غطاء حتى لا يبصر الرشد ، ولا يرى حجة يستضيء بها ﴿فمن يهْديهِ منْ

(١) رواه مقاتل كذا في القرطبي ١٦/ ١٧٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٦/ ١٦٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٣١١ .
(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٣٢٥ . (٥) البحر المحيط ٨/ ٤٨ .

وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

بعدِ اللّهِ﴾ ؟ أي فمن الذي يستطيع أن يهديه بعد أن أضله الله ؟ لا أحد يقدر على ذلك ﴿أفلا تذكّرون﴾ أي أفلا تعتبرون أيها الناس وتتعظون ؟ **قال الصاوي** : وصف تعالى الكفار بأربعة أوصاف : **الأول**:عبادة الهوى ،**الثاني**: ضلالهم على علم**الثالث**:الطبع على أسماعهم وقلوبهم**الرابع**:جعل الغشاوة على أبصارهم ، وكلٌّ وصفٍ منها مقتضٍ للضلالة ، فلا يمكن إيصال الهدى إليهم بوجهٍ من الوجوه . .[1] ثم حكى تعالى عن المشركين شبهتهم في إنكار القيامة ، وفي إنكار الإله القادر العليم فقال ﴿وقالُوا ما هي إلا حياتنا الدُنيا نموتُ ونحيا﴾ أي وقال المشركون : لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا ، يموت بعضنا ويحيا بعضنا ، ولا آخرة ، ولا بعث ، ولا نشور **قال ابن كثير** : هذا قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ، ومرادهم ما ثمَّ إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وليس هناك معادٌ ولا قيامة ، وهذا قول الفلاسفة الدهريين ، المنكرين للصانع ، المعتقدين أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه[2] ﴿وما يُهْلكنا إلا الدَّهر﴾ أي وما يهلكنا إلا مرورُ الزمان ، وتعاقبُ الأيام **قال الرازي** : يريدون أن الموجب للحياة والموت تأثيراتُ الطبائع وحركاتُ الأفلاك ، ولا حاجة إلى إثبات الخالق المختار ، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة[3] ، قال تعالى رداً عليهم ﴿وما لهم بذلك من علمٍ﴾ أي وليس لهم مستندٌ من عقل أو نقل ، ولذلك أنكروا وجود الله من غير حجةٍ ولا بينة ﴿إنْ هُم إلاَّ يظنون﴾ أي ما هم إلا قوم يتوهمون ويتخيلون ، يتكلمون بالظن من غير يقين ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيِّنات﴾ أي وإذا قرئت آياتُ القرآن على المشركين ، واضحات الدلالة على البعث والنشور ﴿ما كان حُجَّتهم إلاَّ أنْ قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ أي ما كان متمسكهم في دفع الحق الصريح إلا أن يقولوا : أحْيوا لنا آباءنا الأولين ، إن كان ما تقولونه حقاً ، سُمِّيَ قولهم الباطل حجةً على سبيل التهكم ﴿قلِ اللّهُ يُحْييكم ثم يُميتكم﴾ أي قل لهم يا محمد : اللهُ الذي خلقكم ابتداءً حين كنتم نُطفاً هو الذي يميتكم عند انقضاء آجالكم ، لا كما زعمتم أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر ﴿ثم يجْمعُكم إلى يومِ القيامةِ لا ريْب فيه﴾ أي ثم بعد الموت يبعثكم للحساب والجزاء كما أحياكم في الدنيا ، فإنَّ من قدر على البدء قدر على الإعادة ، والحكمةُ اقتضت الجمع للجزاء في يوم القيامة ، الذي لا شك فيه ولا ارتياب ﴿ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلَمون﴾ أي ولكنَّ أكثر الناس لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكر ، لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٦٧ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٣١١ . (٣) التفسير الكبير ٢٧/ ٢٧٥ .

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾

والجزاء . . ثم بيَّن إمكان الحشر والنشر ذكر تفاصيل أحوال يوم القيامة فقال ﴿ولِلَّهِ ملكُ السمٰواتِ والأرض﴾ أي هو جل وعلا المالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية ﴿ويوم تقومُ الساعةُ يومئذٍ يخسر المبطلون﴾ أي ويوم القيامة يخسر الكافرون الجاحدون بآيات الله ﴿وترى كلَّ أُمَّةٍ جاثيةً﴾ أي وترى أيها المخاطب كل أمةٍ من الأمم جالسةً على الركب من شدة الهول والفزع ، كما يجثوا الخصوم بين يدي الحاكم بهيئة الخائف الذليل قال ابن كثير : وهذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا جثا على ركبتيه[١] ﴿كلُّ أُمةٍ تُدعى إلى كتابها﴾ أي كلُّ أمةٍ من تلك الأمم تُدعى إلى صحائف أعمالها ﴿اليومَ تُجزون ما كنتم تعملون﴾ أي يقال لهم : في هذا اليوم الرهيب تنالون جزاء أعمالكم من خيرٍ أو شر ﴿هذا كتابنا ينْطِق عليكم بالحقِّ﴾ أي هذا كتابُ أعمالكم يشهد عليكم بالحق من غير زيادةٍ ولا نقصان قال في التسهيل : فإن قيل : كيف أضاف الكتاب تارةً إليهم وتارةً إلى الله تعالى ؟ فالجواب أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتةٌ فيه ، وأضافه إلى الله تعالى لأنه مالكه وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه[٢] ﴿إنَّا كُنَّا نستْنسخُ ما كنتم تعْملون﴾ أي كنَّا نأمر الملائكة بكتابة أعمالكم ، وإثباتها عليكم قال المفسرون : تنسخ هنا بمعنى تكتب ، وحقيقة النسخ هو النقل من أصلٍ إلى آخر ، وقال ابن عباس : تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقابل الملائكة الموكلون بديوان الأعمال ما كتبه الحفظة ، مما قد أُبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر ، مما كتبه الله في القِدم على العباد قبل أن يخلقهم ، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً ، فذلك هو الاستنساخ ، وكان ابن عباس يقول : ألستم عرباً ، هل يكون الاستنساخ إلا من أصل[٣] ؟ ثم بيَّن تعالى أحوال كلٍ من المطيعين والعاصين فقال ﴿فأمَّا الذينَ آمنوا وعمِلوا الصَّالحات فيُدخلهم ربُّهُم في رحْمَته﴾ أي فأما المؤمنون الصالحون المتقون لله في الحياة الدنيا ، فيدخلهم الله في الجنة ، سُميت الجنة رحمةً لأنها مكان تنزل رحمةِ الله ﴿ذلك هو الفوزُ المبينُ﴾ أي ذلك هو الفوز العظيم ، البيِّن الظاهر الذي لا فوز وراءه ﴿وأمَّا الذين كفروا أفلمْ تكن آياتي تُتلى عليكم﴾ أي وأمَّا الكافرون فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً : أفلم تكن الرسل تتلو عليكم آيات الله ؟ ﴿فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين﴾ أي فتكبرتم عن الإيمان بها ، وأعرضتم عن سماعها ، وكنتم قوماً مغرقين في الإجرام ﴿وإذا قيل إنَّ وعد الله حقٌّ﴾ أي وإذا قيل لكم إن البعث كائن لا محالة

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٢ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٤٠ . (٣) انظر البحر المحيط ٨/ ٥١ ومختصر ابن كثير ٣/ ٢١٣ .

حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿والساعةُ لا ريبَ فيها﴾ أي والقيامة آتيةٌ لا شك في ذلك ولا ريب **﴿قُلتم ما ندْري ما السَّاعةُ﴾** أي قلتم لغاية عتوكم : أيُّ شيء هي ؟ أحقٌّ أم باطل ؟ قال البيضاوي : قالوا هذا استغراباً واستبعاداً وإنكاراً لها[1] **﴿إن نظنُّ إلاَّ ظناً﴾** أي لا نصدِّق بها ولكن نسمع الناس يقولون : إنَّ هناك آخرة فنتوهم بها توهماً **﴿وما نحنُ بمُستيْقنين﴾** أي ولسنا مصدِّقين بالآخرة يقيناً ، وهذا تأكيد منهم لإنكار القيامة **﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾** أي وظهرلهم في الآخرة قبائح أعمالهم **﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئُون﴾** أي ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به في الدنيا **﴿وقيلَ اليومَ ننْساكم كما نسيتم لقاءَ يومِكم هذا﴾** أي ويقال لهم : اليوم نترُككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي ، كما تركتم الطاعة التي هي الزاد ليوم المعاد فلم تعملوا لآخرتكم **﴿ومأواكم النارُ﴾** أي ومستقركم في نار جهنم **﴿وما لكم من ناصرين﴾** أي وليس لكم من ينصركم ويخلصكم من عذاب الله **﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آياتِ اللهِ هُزُواً﴾** أي إنما جازيناكم هذا الجزاء ، بسبب أنكم سخرتم من كلام الله واستهزأتم به **﴿وغرتكم الحياةُ الدنيا﴾** أي خدعتكم الدنيا بزخارفها وأباطيلها ، حتى ظننتم ألاَّ حياة سواها ، وألاَّ بعث ولا نشور **﴿فاليومَ لا يُخْرجون منهاولا هم يُسْتعتبون﴾** أي فاليوم لايُخْرجون من النار ، ولا يُطلبُ منهم أن يرضوا ربَّهُم بالتوبة والطاعة لعدم نفعها يومئذٍ **﴿فللّهِ الحمدُ ربِّ السمواتِ وربِّ الأرض ربِّ العالمين﴾** أي فلله الحمد خاصة لا يستحق الحمد أحدٌ سواه لأنه الخالق والمالك لجميع المخلوقات والكائنات **﴿وله الكبرياءُ في السموات والأرض﴾** أي وله العظمة والجلال ، والبقاء والكمال في السموات والأرض **﴿وهو العزيز الحكيم﴾** أي الغالب الذي لا يغلب ، الحكيم في صنعه وفعله وتدبيره .

البَــلاغَــة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التأكيد بأنَّ واللام **﴿إن في السموات والأرض لآيات﴾** لأن المخاطبين منكرون لوحدانية الله .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ٤/١٢٢ .

٢ ـ صيغة المبالغة ﴿ويلٌ لكل أفَّاك أثيم﴾ لأن فعّال وفعيل من صيغ المبالغة .

٣ ـ الأسلوب التهكمي ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ لأن البشارة تكون بالخير واستعمالها بالشر تهكمٌ .

٤ ـ المجاز المرسل ﴿وما أنزل الله من السماء من رزق﴾ أي مطر ، مجاز مرسل علاقته المسببية لأن الرزق لا ينزل من السماء ، ولكن ينزل المطر الذي ينشأ عنه النبات والرزق .

٥ ـ التشبيه المرسل ﴿يصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها﴾ أي كأنه لم يسمع آيات القرآن .

٦ ـ المبالغة بذكر المصدر ﴿هذا هُدى﴾ كأن القرآن لوضوح حجته عين الهُدى .

٧ ـ الإطناب بتكرار اللفظ ﴿سخَّر لكم البحر . . وسخَّر لكم ما في السمواتِ وما في الأرض﴾ لإظهار الامتنان .

٨ ـ طباق السلب ﴿فاتَّبعها ولا تتَّبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ .

٩ ـ المجاز المرسل ﴿فيدخلهم في رحمته﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل رحمة الله .

١٠ ـ الطباق بين ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها﴾ وبين ﴿نموت ونحيا﴾ وبين ﴿يحييكم ثم يميتكم﴾ .

١١ ـ الاستعارة التصريحية ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي يشهد عليكم ، والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة ، لأن شهادة الكتاب ببيانه أقوى من شهادة الإنسان بلسانه .

١٢ ـ الالتفات ﴿فاليوم لا يُخْرجون منها﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة لإسقاطهم من رتبة الخطاب .

١٣ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هـذا﴾ مثَّل تركهم في العذاب بمن حُبس في مكانٍ ثم نسيه السَّجان من الطعام والشراب حتى هلك بطريق الاستعارة التمثيلية ، والمراد من الآية نترككم في العذاب ونعاملكم معاملة الناسي ، لأن الله تعالى لا ينسى ولا يعرض عليه النسيان .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الجاثية »

* * *

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وجعله وقفًا لله تعالى

يوزع مجانًا ولا يباع

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالِي السَيّد حَسَن عَبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تَعَالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع